

اقرأ

أنور الجندى

الإمام المراءى

دار المعارف بمصر

أنور الجندی

الإمام المراءى

١١٥

اقبل

دار المعارف للطباعة والنشر

أولاً ١١٥ - أغسطس سنة ١٩٥٢



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

الإعلانات يتفق بشأنها مع
شركة إعلانات الشرق الأوسط

٣٣ شارع عبد الحالق ثروت تليفون ٧١١٧ : القاهرة

تصدير

يقول أبو بكر محمد بن الحسين « إن من أخلاق العلماء
أن يأمن شره من مخالطة ، ويأمن خيره من صاحب
لا يؤاخذ بالعيثات ، ولا يشيع الذنوب عن غيره ، ولا يقطع
بالبلاغات ، ولا يفتنى سر من عاداه ، ولا يتصر منه بغير
حق ، ويعفو ويصفح عنه . دليل للحق ، عز على
الباطل ، كاظم الغيظ عن أذاه ، شديد البغض لمن عصى
الله ، يحجب السفيه بالصمت عنه ، والعالم بالقبول منه .
لا مداهن ولا مشاحن ولا محتال ولا حسود . ولا حقود
ولا سفيه ولا جاف ولا فظ ولا غليظ ولا طعان ولا لسان
ولا مغتاب ولا سباب . . . يخالط من الإخوان من محال .
على طاعة ربه ونهاه عما يكره مولاه ، ويخالف بالجميل من
يأمن شره إبقاء على دينه ، سليم القلب للعباد من الغنى
والفقر ، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أسفروا
فيه الخطر ، ولا يحب زوال النعم عن أحد من العباد ، يهمل
جهل من عامله برفقه ، إذا تعجب من جهل غيره ، ذكر

جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل ، لا يتوقع له باثقة ، ولا يخاف منه غائلة . . . الناس منه فى راحة ، ونفسه منه فى جهد »

... هذه أخلاق العلماء كما يصورها الإمام أبو بكر ابن الحسين . . . وهى صورة الخلق الذى كان يرضاه الإمام المراغى ، وفى هذه العبارات لمحة من شمائل هذا الرجل الذى تقدمه للشباب الحديد صورة صادقة للائمة المصلحين ، والعلماء العاملين ، والمجتهدين المجددين . .

يقدم هذه الصورة السريعة كاتب من غير بيئة الأزهريين ، تأكيداً لأثر الرجل فى ميادين الثقافة والفكر والأدب بالإضافة إلى فضله فى ميدان الأزهر والدين .

إنه من الجائز أن يكتب عن الإمام المراغى ، أتباعه وتلاميذه ومريدوه ، والذين اتصلوا به فى بيئته الأصلية وعاشروه ، أما إذا تصدى لذلك كاتب من غير هذه البيئة فذلك دليل على مكانة الرجل الذاتية التى فرضت نفسها على المفكرين والباحثين . لقد أوليت فى « التاريخ » عنايتى منذ سنوات ، وشغفت بدراسة الأبطال والعظماء وتراجم أفذاذ الرجال ، وأوغلت فى البحث وراء منابع العبقريّة فى طائفة كبرى من زعماء الإصلاح والوطنية والحرب فى العصر الحديد والقديم وفى

الشرق والغرب فكان ممن استهوانى فى التاريخ المعاصر القريب
احال من بينهم هذا الإمام العظيم .

وحق للمراغى أن يكتب عنه من تعلم فى غير بيئة الأزهر ،
فقد امتد أثر الرجل وفضله إلى أكثر من ميدان ، وكلنا
له أثره الواضح فى محيط الثقافة وتطور الفكر الحديث .

وكان الإمام رضى الله عنه بعيد الأثر فى كل عمل أدبى
جديد ، فطوق أعناق كل من أخذ من الثقافة العربية
الجديدة بسبب .

وإننا لا نمن على ذكرى الإمام الجليل بهذا العمل بل
نعتبره أقل ما يجب فى حق رجل هز المشرقين ونقل الأزهر
من وضع إلى وضع .

ونحن لا ندعى أننا بهذا السفر الصغير المتواضع ،
نقدم « تاريخاً » للإمام المراغى ، أو نضع سيرته موضع
البحث العلمى الذى هى جديرة به ، فذاك عمل ضخم
لا نزعم أننا نستطيع القيام به الآن ، وهو جدير بأن تبعاً له
جهود عدد كبير من الكتاب والعلماء والباحثين ، وأن يكتب
فى أثناءه وأن تضم إليه الكثير من الوثائق والرسائل والأبحاث
التي كتبها عميد الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة ، والتي
تضمها مكتبته العامرة فى حلوان .

وكل ما نستطيع أن نقدمه الآن هو هذه الخطوط الرئيسية لتلك « الشخصية » الضخمة ، نؤدى بذلك واجباً محتوماً ، يعد كل تأخير فى أدائه تقصير فى حق الرجل العملاق الذى وهب حياته مصر والإسلام والأزهر ، وعاش لها جميعاً كل لحظة فى حياته . . .

والحق أننى كلما أوغلت فى دراسة هذه الشخصية الممتازة الخالدة ، ازددت لها إكباراً وبها إعجاباً . . . فالإمام المراغى ، رجل معاصر ، قريب العهد بنا وبحياتنا السياسية والاجتماعية ، وقد كنا نراه ونسمع منه . . . وكنا نكبره ونجمله من بعيد ، غير أننا عندما تحقق لنا العزم فى الكتابة عنه ، وأخذنا نتصّل بعارفه وأبنائه ، والذين عملوا معه ، وأخذنا نقلب صفحات الأحداث ، كانت كل كلمة صغيرة ، أو قصاصة ضئيلة ، تعطينا الدليل الحديد على عظمة الرجل ، وجلاله وخطره وأثرة البعيد المدى .

وإذا كنا لا نستطيع الآن أن نقول كل شىء عن عميد الأزهر والإسلام ، فإننا نعتقد أن الظروف المواتية ستحقق لنا الرغبة فى أن نضع بين يدى الناس كل « حقائق » التاريخ بالنسبة لرجل أمضى حياته مجاهداً . . . وقضى وهو فى ساحة الوغى . . .

لقد مرت على مصر فترة من الوقت ، كانت خلالها
موضع الإتهام في أنها لا تنجب العباقرة ولا الأبطال
وقد مضت هذه الموجه تصور كل أقطاب الفكر والرعاية
والسياسة في مصر بصورة الغريباء
هي موجه عاصفة تنكر فيها الناس لطبيعة مصر ،
ووصفوها بالعقم ، غير أن الشخصيات المصرية الصاعدة
التي هزت التاريخ المعاصر هزاً ، قضت على هذه الفرية ،
ودحضتها فلم يستطع القائلون بها ترديدها من بعد .
وفي مقدمة الشخصيات التي أثبتت سلامة الطبيعة
المصرية وخصوبتها وقدرتها على إنتاج العبقريات الإمام
المراغي .

أنور الجندي

القاهرة في ٧ ربيع الأول ١٣٧١

٢١ ديسمبر ١٩٥١

النبوغ الباكر

تاريخ الإمام المراغى كله ، يدل على النبوغ والتفوق والسبق . . .

وقد بدا ذلك الطابع جلياً منذ أيام الدروس الأولى في الأزهر ، فقد عرف عنه أنه كان لا يحضر إلا الدروس الرئيسية وحدها ، ثم ينصرف إلى الدراسة الخاصة التي كان يربتها وفق حاجاته العلمية . .

وقد أتاح له هذا الاتجاه أن يدرس عدة سنوات دراسية في سنة زمنية واحدة ، فكان أصغر من حمل العالمية من أبناء العلماء ، إذ حصل عليها وسنه (١) ثلاثة وعشرون عاماً .

وظل طوال حياته على هذا النهج ، أصغر من ولي منصباً من المناصب التي وليها من ناحية السن .
كان أصغر من ولي منصب القضاء ، وقاضى القضاة ، وعضو المحكمة الشرعية ورئيس المحكمة العليا . . ، وأصغر

(١) ولد الإمام ١٨٨١ وحصل على العالمية ١٩٠٤ .

من أحرز عضوية هيئة كبار العلماء وأصغر شبوخ الأزهر سنًا ...

كان أصغر أنداده وزملائه سنًا ، ولكنه كان من أكثرهم ذكاءً واتزانًا ، وكان في مستهل شبابه يبدى من الرأي ما يثير إعجاب زملائه وهم أوفى منه سنًا وخبرة ، وأقدم منه عهدًا بملابسة حياة الأزهر .

يقول الأستاذ أبو الوفا المراغي « إنه كان يعتمد على نفسه في تحصيل الدرس وتفهم المسائل فكان يبدأ الكتاب على أحد أشياخه ثم يتمة مذاكرة مع أحد زملائه » .
وقد برز هذا النبوغ بعد ذلك في كل أدوار حياته ومختلف الأعمال التي وكلت إليه ، ومضت حياته على صورة متنوعة من الكفاح الدائم ، والنشاط الدائب ... فلم يقف ، ولم يتحهل ، ولم يتوقف عن جهاد في سبيل الوطن والعقيدة والأزهر ولم يدع فرصة من الفرص ، يمكن أن يعلن فيها اسم مصر أو الإسلام عاليًا إلا انتهزها وأخذ منها بأوفى نصيب .
واختلف مع الإنجليز بشأن راتب القاضي ، واختلف معهم بشأن قرار تعيينه ، واختلف معهم بموقفه من الثورة المصرية سنة ١٩١٩ . واختلف معهم حين مرور جورج الخامس ، وكان مصدر خلافه إيمانه ووطنيته ، ولم يهاملهم

إلا في حدود ما يأمر به الدين من معاملة الناس . . .
وما أن عاد إلى مصر حتى بدأ العمل ، فأصلح في
الأوقاف ، وأصلح في المحاكم الشرعية وجدد خطب المنابر ،
وأساليب الوعظ .

فهو الذي وقف في وجه عاصفة التبشير التي احتاجت
مصر والشرق .

وهو الذي أدخل العلوم الحديثة واللغات الأوربية
إلى الأزهر .

وهو الذي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه .

وهو الذي دعا إلى ترجمة القرآن .

وهو الذي ألغى الطلاق ثلاث مرات في مرة واحدة .

* * *

وكان نبوغه مدداً لحصافته ولباقته ، فأفاد من أخطاء
من سبقوه ، وتجنب ما وقعوا فيه ، ولم تؤخذ عليه حديثهم . . .
التي قال عنها الشيخ رشيد « لظالما هدمت الحدة ما بنت
القطنة » ، فكان خبيراً بأخلاق الناس ، فاستطاع أن يصل
إلى ما يريد دون أن يجرح أو يعادي أو يخاصم وكان أمهل
شيء عنده أن يتنحى إذا قامت العقبات في طريقه .
وقد أتاح له نبوغه حصيلة ضخمة من العلم والثقافة ،

امتزجت بها حصة ومرولة كانت ستادم في مواجهة المواقف والأحداث .

ولد الإمام محمد مصطفى المراغى في ١٠ المراجعة ١٢٠٠ من أعمال مركز طهطا في ٥ مارس سنة ١٨٨١ وقضى إلى رحمة ربه في ٢١ أغسطس ١٩٤٥ .

ولد في الريف ونشأ في الصعيد ، وطالع فجر الحياة في بيئة العلم وبحيط الدين فقد كان والده طيب الله ثراه ، عالماً جليلاً ، فصنعت عيناه على تلك الحياة النقية الصافية التي كان الناس يحبوها في ختام القرن الماضي في أعمال الصعيد .

والحياة في الريف ، وفي صعيد مصر ، تعد النضج الإنسانية بالحياة الدافئة ، ومعد الطبع السوي بالإيمان والوفاء والشجاعة والنبيل ، هذا إلى اعتزاز بالشخصية مطبوع وتقدير للكرامة موروث ... نضج في ميلاهما الشيخ بكل شيء . وكذلك كان الإمام المراغى صورة صادقة لبيته .

وأن أتيح له من بعد أن يستجيب للحياة الجديدة في مروية وسعة أفق ، إلا أنه ظل محتفظاً بأجل ما يرسب في الطبع من حوافل للبيئة الصعيدية الخالصة وهو كرم اليد وساحل النضج والاعتزاز بالكرامة .

نشأ المراغى هادئ الطبع ، رقيق الإحساس ، كبير الأناة ، وظل كذلك . . طوال حياته ، وكان إلى بساطته وتواضعه عزيز النفس مرفوع الهامة حتى لتستطيع أن ترجع كل تصرفاته إلى هذه الطبيعة في مجموعها .

ولا شك أن تلك الطبيعة « المراغية » التي ولدت معه ، في بيئته الريفية الأولى قد وضعت التصميم الأول للشخصية الفذة . .

فإذا ما جاءت بعد ذلك المجاورة لطلب العلم ، والاتصال بالشيخ محمد عبده ثم السفر إلى السودان . . ، وتولى القضاء ، ثم العودة إلى مصر ، فإنما جاء هذا كله وجاءت تجاربه وخبرته لتقيم بناء هذه الشخصية النموذجية وتصنعها في قالب النموذجي .

قاضي القضاة

أمضى « المراعى » فترة تبلغ ثلاثة عشر عاماً في السودان ، ما بين عام ١٩٠٤ و ١٩١٩ وقد أمضى من هذه المرحلة ، فترة في القاهرة . ، ثم عاد مرة ثانية عندما اختير قاضياً للقضاة .

اختير الإمام سنة ١٩٠٤ قاضياً لمديرية دنقلة ، فأمضى بها عاماً ، فقل بعدها قاضياً لمديرية الخرطوم فكث بها عامين ثم اختلف مع السكرتير القضائي على مرتب « القاضي » ثم عاد إلى القاهرة . وأثر البقاء بها .

وعين في تلك الفترة مفتشاً بوزارة الأوقاف ، وتزوج في سنة ١٩٠٨ وفي سنة ١٩٠٩ رزق بالمرتضى .

حدثني الأستاذ عبد الحميد رشوان قال « كان مرتب القاضي عند ما عين الإمام بالسودان ١٤ جنياً ، غير أنه منح زيادة قدرها ٦ جنيهات . فلم يقبلها ، واحتج لدى السكرتير القضائي المستر بونهام كارتير . .

فقال السكرتير انى أعجب من قاض شرعى يرفض مئة جنيات علاوة فى الشهر فاستاء الشيخ ، وقال له : إن عجبى مثل عجبك من أن القاضى الإنجليزى يتناول ٥٠ جنياً بينما تستكثر على القاضى الشرعى المصرى ٢٠ جنياً وطلب الشيخ أجارة ثلاثة أشهر . . وعاد إلى مصر ، غير أن السكرتير ألح عليه فى أن يعود ، ورفض الشيخ .

« . . وأمضى الشيخ فترة فى العمل بمصر ، ثم خلت وظيفة قاضى قضاة السودان وكان الإنجليز قد اختاروا الشيخ المراغى ، وطلبوا إلى الحكومة المصرية تعيينه قاضياً لقضاة السودان . . ، وكان وزير الأوقاف إذ ذاك حسين رشدى باشا الذى تولى مفاوضة الشيخ غير أن « الإمام الماغى » اشترط لقبول المنصب ، شرطاً جديداً ، لم يكن معروفاً أو سارياً إذ ذاك وهو أن يعين بمقتضى أمر من الخديوى ، لا يعقد مع الإنجليز كما كانت العادة . . وقد أجيب إلى ما طلب (١) » .

(١) مما يروى أن كتنشر وكان المندوب البريطانى قال للشيخ : كيف تشترط هذا ونحن نرفع مرتبك إلى أكثر من سبعة أضعاف مرتبك الحال . . قال فضيلته : لن أقبل التعمين إلا بمرسوم مصرى . . وما يذكر أن القاضى الذى خلفه فى منصبه عين بأمر الحاكم العام الإنجليزى . .

وقضى الأستاذ عبد الحميد يستعيد ذكريات أربعين
عاماً ويقول : وكان أصغر من ول منصب قاضي القضاة
سنة ، كان منه ٢٨ عاماً . . . ، وقد أمضى هذه المرة في
السودان وفي منصبه هذا أحد عشر عاماً ، من ١٩٢٤
١٩٢٩ ، وحظت هذه الفترة بالكثير من الأعمال الضخمة
التي أحدثها الشيخ . .

. . . وليست وظيفة قاضي القضاة في السودان ، وظيفة
قضائية فحسب ، بل هي بمنصب وزير العدل أشبه
فقد كان قاضي القضاة يعين القضاة والكتبة وموظفي المحاكم
وبحسبهم على أعمالهم ، ويفصل من يقصر منهم . . .
. . . وقد شرع الشيخ سنة جديدة في العمل كانت
بعيدة الأثر في تنظيمه ، هي التفتيش على المحاكم ، فقد
كان قضاة السودان - إذ ذاك - على قدر يسير من العلم
فرضي الإمام يرشدهم ويوجههم بوسائل غاية في البراعة
طالب كل محكمة أن ترسل كشفاً شهرياً . . . يحصل كل
قضية ، ويبيان حكم المحكمة فيها ، فكان تراجع هذه الكشوف
بنفسه ويشت في شحانة خاصة رأيه في الحكم ، وبين ما فيه
من وجه الخطأ أن وجد ، ويطلب إلى القاضي أحياناً بعض
التفاصيل ، ويوجهها فيما يعمل لو عرّض عليه مثل هذا

الأمر بصورة أخرى فى قضية أخرى . . فإذا رأى الشيخ أن الخطأ فى الحكم كان كبيراً وأنه مدعاة إلى ظلم المحكوم عليه ، الغاه وطلب إعادة النظر فيه .

ونجحت هذه الطريقة فى ترقية أذهان قضاة السودان ، وتوجيههم . . وفى نفس الوقت كان الشيخ يشرف على القسم الشرعى من كلية غردون ، وبذلك أمكن تخريج طائفة جديدة من القضاة الذين حصلوا على قدر لا بأس به من العلم ، بعد أن ذود فضيلته الكلية بعلماء مصريين من دار العلوم وغيرها ومن لطيف ما حدث أن أحد القضاة كتب على ملاحظة لم ير لها جواباً . . « وقف حمار الشيخ فى العقبة » .

* * *

وما حدثنى به الأستاذ عبد الحميد أيضاً مسألة الوقف فى السودان ، وهى قصة جدية بالتسجيل ، ولها مكانها فى تاريخ الإمام المراغى . . ، فقد كان الرجل نائب العمل ، فى سبيل الدين والناس . . لا يدع وسيلة شريفة إلا انتهجها ، للوصول إلى الحق . .

قال : كان فى مدينة الخرطوم مسجد واحد ، قامت بإنشائه وزارة الأوقاف المصرية ، ولم يكن — عند عودة الشيخ إلى الخرطوم قد تم . . وقد اهتم الأستاذ المراغى

بالمسجد . وبحث أمره طويلاً ، فعلم أن لهذا المسجد أوقافاً
سابقة ، غير أن إعادة تخطيط المدينة بعد حوادث المهديّة ،
وتنظيمها على الوضع القائم وهو ما قام به اللورد كتشنر
بالاشتراك مع اليوزباشي المصري محمد السعيد سماحة .
ضيق معالم وقف المسجد . . .

وكان كتشنر قد أعلن ، أنه على استعداد لأن يرد لمن
فقد منه منزله أو أرضه ، مساحة مماثلة في أي مكان . . .
وطلب الشيخ إلى المهندس الضابط : السعيد سماحة -
وكان أهل دين واستقامة أن يبحث في السجلات القديمة عما
لهذا المسجد من أوقاف ، فقام الرجل بمهمته على أكمل
وجه . . . وقدم للشيخ كشفاً يشتمل على ما للمسجد من أوقاف
في مدينة الخرطوم ، مبيناً مواقعها . . .
وأخذ الشيخ الكشف وذهب به إلى السير ونجت الحاكم
العام للسودان . . .

وحديثه في الأمر ، وكان مما قال له إن الإنجليز قد
خالفوا هذه المرة تقاليدهم في احترام الشعائر الدينية
والحفاظة على بيوت الله ، فقد وضعوا أيديهم على أوقاف
مسجد الخرطوم بدون بدل ولا ثمن .
وهنا بهت الحاكم العام وأنكر التهمة . . . وقال إن كان

قد حدث شيء من هذا فإني على استعداد لإصلاحه . . .
 فقدم له الشيخ الكشف . . فوعده بالبحث ثم عاوده الشيخ
 فقال له إن هذه الأملاك قد بنيت ، وأنه على استعداد
 لإعطاء قطع خالية بالخرطوم بدلا منها فرضى الشيخ بذلك ،
 عدا قطعة واحدة على النيل مساحتها خمسة أفدنة ، أقيم عليها
 منزل ضخم لمدير الخرطوم الإنجليزي فقد رفض الشيخ
 أن يستبدلها . . وصمم على أن يضع يده عليها ، فقال له
 الحاكم العام . . تريد أن تطرد المدير . قال لا . . ولكنني
 أؤجر المنزل له . . فقبل الحاكم أن تضم للوقف وتؤجر
 للحكومة بإيجار سنوي بلغ ٢٥٠ جنيها ، وكتب قاضي القضاة
 والحاكم العام عقداً تنازلت فيه الحكومة عن الأرض للوقف ،
 وعين الشيخ ناظراً عليه . . وسجل كتاب الوقف بمحكمة
 عموم السودان الشرعية وهو موجود بسجلاتها إلى الآن وهو
 أول وقف في السودان ، ثم رغب الشيخ في استثمار الأرض
 الحالية ، على أساس أن أن يقترض من البنك الأهلي
 بالخرطوم ٤ آلاف جنيه فقبل البنك ورهن له الشيخ في
 مقابل هذا إيجار منزل المدير بدون فائدة واستولى على المبلغ
 وبني به بيوتاً في الخرطوم ما تزال عامرة . . وأفق إيرادها في
 إصلاح المسجد . . وقد زادت هذه الأوقاف بما تجمد

من إيمان الملاكين وكان ذلك بفضل الشيخ المراغي *

ثم لم يلبث الشيخ المراغي ، أن سمع وسمع المصريين في السودان بأبناء الثورة في مصر سنة ١٩١٩ وكان عددهم كبيراً فقد كان الجيش المصري ما يزال هناك . فإذا كان موقف الرجل الوطني ..

حدثني الأستاذ رشوان قال :

في يوم من أيام شهر يونيو ١٩١٩ طلبني الأستاذ الإمام وكتب سكرتيراً لمحكمة عموم السودان بالخرطوم وهو قاضي القضاة بها ، وأعطاني نداء مكتوباً بقلم من ناز ختوانه « اكتب لمكتوبي الثورة الوطنية بمصر » .. ولما قرأته طلبت إليه تغيير كلمة « الثورة » حتى لا تثير خنون الإنجليز فغضب .. وقال : لا نكذب التاريخ فإنها ثورة قامت من النور إلى الإسكندرية ..

وقد تضمن النداء المأسي التي وقعت في مصر والقواجم التي لحقت بأهل القرى ، وما أسالوه من الدماء ظلماً ، ولا كان من الطبيعي أن نتأثر ونتألم لأبنائنا المنكوبين متخفين لأن المنكوبين ، فإنه على كل مصري ومصري أن يساهم في دفع ما تجود به نفسه ، لإرساله إليهم » وقال

في ختام النداء « لا تستقلوا القليل فإن الغرض هو بث
الشعور في النفوس » ووقع على النداء باسمه الكامل . . وطلب
إرسال المبالغ باسمي وبمقتضى إيصال .

أعطاني الإمام هذا النداء وقال إنه يجب أن يكون سرّاً
لا يعلم به أحد إلا بعد أن يصل إلى من وجه إليهم ، وعليك
أن ترسل صورة إلى كل مأمور مصري في أنحاء السودان ،
ولكل قومندان أو رطة مصرية حسب الظروف ، إما بالبريد
إن كان مستطاعاً أو عن طريق اليد .

وقد امتثلت للأمر ، واستعنت ببعض الإخوان المصريين
على كتابه ألف صورة من هذا النداء وقعها الأستاذ جميعها
بخط يده ، وبشرت توزيعها واستعملت في سبيل توصيلها
وسائل كثيرة . . ، ولم يلبث النداء أن وصل إلى الأيدي
المصرية ، وكانت النفوس ثائرة لما حل بمصر ، فسارعوا
جميعاً إلى الاكتتاب بقلوب راضية ، وكانت الاكتتابات
تصلني وأرسل الإيضالات الخاصة بها فوراً .

وسارع إخواننا السودانيون إلى مشاركة المصريين في
الاكتتاب بحماسة ظاهرة تنبئ لها الإنجليز في مختلف جهات
السودان ، وأرسل المديرون الإنجليز إلى الحاكم العام تلغرافات
احتجاج ، متضمنة أن الشيخ المراغي قد أعلن الثورة في

السودان وطلبوا وقف الاكتتاب ، وكان الحاكم العام بمصيفه
 في (سنكات) فأرسل إلى المستر (دن) رئيس القضاة المدني
 وثأبه في الخرطوم ، أن يتفق مع الأستاذ على وقف الاكتتاب
 الخطير الذي أشعل نار الحماسة في جوارب السودان .
 وسرعان ما اجتمع المستر دن بالأستاذ ورجاه بوقف
 الاكتتاب فرفض الشيخ وقال : إنني حددت ميعاداً لذلك
 هو آخر يوليو ١٩١٩ ولن أرجع عن ذلك .

فقال المستر دن : إنك تعلن الثورة والمديرون بالجهات
 غير قادرين على معالجة المسألة بالنسبة للسودانيين . .

فقال الشيخ : إنني طلبت الاكتتاب من كل مصري
 ومصرية فقط ، ولم أطلب من السودانيين شيئاً ، فإن كانت
 حماسهم الوطنية قد دفعتهم إلى المساهمة فليس لي أن أحلهم
 على وقف شعورهم .

فلما أعياء إقناع الأستاذ قال له : إنني أكلمك كرئيس ،
 ويجب لإبطال الاكتتاب فوراً منعاً للثورة . . ولم يكده الإمام
 يسمع كلمة « رئيس » حتى انبرى له . . وانتصبت قائماً
 وقال : كنت أفهم أنك تعلم واجبك . . إنه ليس لي
 رئيس هنا ، فإن الحاكم العام معين بأمر ملكي وهو
 الحاكم السياسي وأنا معين بأمر ملكي وأنا قاضي القضاة .

ولا إشراف لأحد منا على الآخر وتركه وانصرف ...
 وقد اضطر مستر « دن » إلى إخطار الحاكم العام
 سير لي ستاك باشا ، بمصيفه في « سنكات » بأن الأستاذ
 رفض الإذعان وأن الموقف أصبح حرجاً ... واضطر الحاكم
 إلى أن يعود من مصيفه لمقابلة الشيخ ...
 وأرسل إليه يدعوه إلى تناول الشاي معه ، فلما ذهب
 الأستاذ بدأ السير لي استاك في الحديث بأسلوب لبق :
 قال « أنت تعلم ما فعله الإنجليز في بلادنا وكيف هم عندنا
 مكروهون ولكنني حاكم إنجليزي ، فيجب أن أترك لإرلندا
 وراء ظهري كما أنك مصري ، وأنا أشاركك في الألم لما
 حدث ... من أعمال الإنجليز ، ولكنك هنا حاكم في
 حكومة السودان ... وأنا وأنت مسؤولان عن حالة الأمن ،
 لأن الثورة إذا اندلعت فسوف تأخذنا معاً ، ومن شأن هذا
 النداء الذي وجهته أن يوقظ الثورة كما أ برق إلى كل مدير
 إنجليزي فأرجوك وقف الاكتئاب .

.. فأجابه الشيخ المراغي في هدوئه المعروف .. قال :
 لست أعجب أن يبلغك المديرون هذا ، فهم شبان صغار
 السن ، علموا تعليماً خاصاً بالمستعمرات ، ليس عندهم من
 الخبرة أو المران السياسي ما يكفيهم لفهم الأمور على حقيقتها .

ولكنني أعجب لك أن تصدقهم . وقبل كل شيء أحب
أن تعرف أن الثورة لا تخيفني ، فإذا جاهد السوداني وأمسك
سيفه وخلص له : أشهد أن لا إله إلا الله فيسقط سيفه من
يده . . .

وأنت تعلم أن الإنجليز فعلوا في مصر الكثير ، وقتلوا
شبابها ، وأكلوا النساء وابتعوا الأولاد ، ولم تأخذهم في
العلم رحمة ، وأسالوا الدماء ، ونصبوا المشافي في كل مكان .
فكان لا بد أن يتأثر أبناؤهم وأهلوم في السودان ، والحبش
المصري كله هنا . . . ولا شك أن وصول هذه الأنباء من شأنه
أن يؤدي إلى إعلان الثورة عليكم هنا أيضاً ، غير أنني لما
صنعت قد حولت التيار الدموي إلى تيار مالي ، لا يضر الإنجليز
في شيء ، وكنت أطمح أن أنال التقدير والشكر . . . لاسيما
من الحاكم العام .

وهنا بيت الحاكم ، وقال : . . . إفل ما تريد . . . لقد
قلت للإنجليز هنا وفي لندن إن الشيخ المراغي لا يمكن
مناقشته أو الخطب عليه ومن الصعب إقناعه ومضى يمشي
يروي بقية قصة « البطولة المراغية » . . . فقال :

لقد استمر الاكتاب إلى ميعاده الذي حددته الأستاذ ،
وبلغ المبلغ المتجمع ، إلى ٦ آلاف جنيه تقريباً . . . وهنا

كتب الإمام برقية إلى محمود باشا سلمان رئيس اللجنة المركزية للوفد،
 يخبره بشأن المبلغ المتجمع ، ويسأله كيف يدفع للمنكوبين ..
 ولما لم يصله رد ، نظراً لوجود الرقابة ، وعلم الأستاذ أن
 اللورد اللنبي أصدر أمراً بعدم إعانة المنكوبين أو الاكتتاب
 لهم . اضطر إلى تأليف لجنة من كبار المصريين بالسودان
 للتصرف في المبلغ ، وانتهى قرارها بتسليم المبلغ إلى الأستاذ
 محمد العشماوى (العشماوى باشا) الذى كان قاضياً مدينياً
 بالخبرطوم إذ ذاك ليأخذه معه فى سفره إلى مصر على
 على أن يقوم بدفعه للجمعيات الخيرية الإسلامية ، والقبطية ،
 فى القاهرة ويرشدهم إلى أوجه الصرف للمنكوبين وفى هذا
 مخرج من الحظر الذى أمر به اللورد اللنبي وبعد هذا لم يجد
 الإنجليز بداً من السعى الدائب لنقل الشيخ المراغى إلى مصر
 أو منحه أجازة طويلة . . . »

وسكت محدثى ، ثم قال . . وهكذا ترك الإمام صفحة نقية
 غنية بالوفاء والوطنية . . . والرجولة تقدمها للذين طالما حملوا
 على الرجل حملات مغرضة . . . ليعرفوا إلى أى مدى وقف
 الرجل فى وجه الإنجليز . . . وكيف أدى واجبه الذى
 يعتقد — فى هذه الفترات العصيبة الحرجة من تاريخ وادى
 النيل . . .

كم أفاد « الرجل » للإسلام ولمصر وللأزهر من هذه
السفارة القوية . . . خلال هذه الحقبة التي قضها هناك . . .
كم أفاد « الإمام » لشخصيته ولنفسه من التجارب
والأسفار ومعرفة الرجال ودراسة المعالم . . .

كان رجل مصر الرسمي في ذلك الوقت . . . فرفع اسمها
عالياً ، وكان رجل الإسلام فأدى واجب الإسلام الحق . . .
كان المراغى سفير مصر الذي يعطى كلمة الوحدة
معناها ، بصورته ومظهره وخلقه ومركزه ، وسجته للسودان ،
وحب السودانيين له . . .

ذهب المراغى إلى السودان ، وأقام هناك ، في الوقت
الذي كان الناس يبغضون الاغتراب ، وعاش في الجنوب
سنوات طويلة في جو يختلف عن جو مصر فكان من أعظم
سفرائها ، وإليه يرجع الفضل في توثيق الأواصر وربط عرى
الأخوة . . .

إصلاح الأسرة عن طريق التشريع

شغل الأستاذ المراغى بعد عودته من السودان في الفترة ما بين ١٩١٩ - ١٩٢٨ المناصب القضائية التالية :

- * رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية .
- * رئيس محكمة مصر الابتدائية الشرعية .
- * عضو المحكمة العليا الشرعية .
- * رئيس المحكمة العليا الشرعية .

وقد حفلت هذه الفترة « الثانية » من حياته بالأعمال والمشاريع والدراسات ، وكان أهمها « إصلاح الأسرة » .

وكان العمل في محيط القضاء قد أتاح للإمام فرصة للدراسة الواسعة ، ولعرفة الآلام الإنسانية فعمل على خدمة المجتمع عن طريق التشريع الإسلامى وعلى ضوء ما بدا له من مشاكل .

يقول فضيلة الأستاذ محمود جبريل « عندما عاد المراغى إلى مصر ، واشتغل بالقضاء كانت هناك قضايا اجتماعية تتعلق بالأسرة وحقوقها ، لم يجد القضاة لها حلا في التشريع المعمول به ،

فأخذوا يجادلون بالشكوى مما يلاقونه من الحرج في الترام من مذهب الإمام أبي حنيفة في التطبيق وعلى أثر صدور حكم إحدى محاكم الوجه القبلى في موضوع ثقة لزوجة عاتق في أبريل سنة ١٩٢٠ وضع أول قانون في تاريخ القضاء الشرعى الحديث عكس به عن مذهب الإمام أبى حنيفة إلى مذهب الإمامين مالك والشافعى وشمل هذا القانون مسائل الاعتداد والتطبيق بسبب الإحصار والغيبة ، والتفريق بسبب العيوب التي لا يمكن البرء منها ، وما يتبع بشأن زوجة المفقود ، وهو القانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٠ الذى صدر في يوليو من ذلك العام .

وبه وجد القضاء المخرج من الحرج الذى كانوا يتعرضون له عند الفصل في هذه الخصومات فقد عالج القانون مسائل الطلاق والضرار والتحكيم والتطبيق على المسجونين دفعا للقبض ووقاية للأخلاق كما عالج مسائل النسب .

وحدثني في هذا الشأن الأستاذ محمود السيد سكوتير مكتب الأستاذ الإمام في الأزهر ، قال « كان الإمام المراعى مجدداً في كل عمل تولاه ، قاضياً ، مفتشاً للمساجد ، رئيساً للمحكمة . . . وكان من أهم ما شغله مسألة الأسرة . . . والتطرف في بعض المذاهب ومن هذه المسائل التي عنى بها وعالجها .
أولاً : كانت تستطيع المطلقة أن تحصل على نفقة مدى الحياة ما

دامت تدعى أن عدتها لم تنقضى بعد .

ثانياً : كانت المرأة التي غاب عنها زوجها ، لا تستطيع أن تتزوج إلى مدى بعيد .

ثالثاً : كان ابن الأبن (الحفيد) الذي يموت أبوه في حياة أجداده ، يحرم من الثروة ، لا لسبب إلا لأن أباه كان قصير الأجل .

وقد عمد الأستاذ إلى إصلاح هذه العيوب في أمور الأسرة ، فأمر بتشكيل لجنة لإطلاق عليها لجنة تنظيم الأحوال الشخصية . برئاسة فضيلته ، وقد بحثت اللجنة هذه الأمور وغيرها ، واستطاعت أن تجد في المراجع الإسلامية ما يرقه عن الأسر ، وما يعنى الزوجة من نفقة العدة ، وكذلك فيما يتعلق بالطلاق فقد نزه الطلاق عن أن يكون قسماً وحال بين وقوع الطلاق بقول واحد (الطلاق بالثلاثة) .

وقد افتتح فضيلته اجتماعات هذه اللجنة بكلمة ضافية بين فيها مهمتها ومما قاله : « إن إصلاح القانون لإصلاح لنصف القضاء ، أما النصف الآخر فهو بيد القاضى نفسه لأن عليه أن يفهم الوقائع أولاً كما هى ، بعد تلمس أدلتها ونقدها والموازنة بينها » .
ومما روى أن « الإمام » كان يقول لأعضاء اللجنة « ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان وأنا لا يعوزنى

بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم .
وهذه هي بدور « الإمامة » في المراعى وعلامات « الاجتهاد »
وكان الإمام المراعى يقول (١) : إن الشريعة الإسلامية فيها
من السماحة والتوسعة مما يجعلنا نجد في تفرعاتها وأحكامها في
القضايا المدنية والجنائية ما يفيدنا وينفعنا في كل وقت ، وما
يوافق رغائبنا وحاجتنا ، وتقدمنا ونحن في ذلك كله ، ملازمون
لحدود شريعتنا ، ولكن فريقاً من متأخري العلماء رأوا أن كل ما
جاء في كتب الفقه من المتون والحواشي والآراء المصيبة والمخطئة
كل ذلك من الدين ومن أصوله . . . التي يجب أن نتمسك بها ولا
نحيد عنها وهم مخطئون في هذا الفهم ، إذ أن من ينظر في كتب
الشريعة الأصلية بعين البصر والخلق ، يجد من غير المعقول أن
نضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ في القرن الثاني عشر من الهجرة ،
ثم نجى بعد ذلك فنطبق هذا القانون أو المبدأ سنة ١٣٥٤ ،
وأن من ينظر في أقوال الأئمة من مذهب أبي حنيفة ، وما وقع
بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبي يوسف ، وبينهم هم ، يجد أن
التجديد في الأحكام الشرعية ميسور لنا ، وفي أهون مستطاعنا
ويجد أن بطلان الدوام لأحكام معينة وبطلانها حيث يبقى الدهر
من الأمور البدئية ، ومعنى هذا أن المسائل الفقهية ما سلمت

(١) نقلا عن مذكورة وجدتها عند الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى .

غير قطعية فهي قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير .
 وقد أدى المراعى بهذا ، للأسرة والمجتمع ، خدمة جليلة
 القدر ما تزال بعيدة الأثر فى إصلاحهما ، ومسايرتهما لتطور
 الزمن .

قضية النار

من الناس أفراد قلائل ، يؤمنون بالحق ، ولا يبالون في سبيل عقيدتهم ، أى بلاء يصيبه عليهم خصوم الحق جزاء تمسكهم وإيمانهم به .

ولقد حدثنا التاريخ عن حفة من هؤلاء . . . تعد على الأصابع ولكننا لم نلبث أن « عاصرنا » حدثاً من هذه الأحداث ، يقع لإمام جليل ، كان يجرى على سنة هؤلاء السلف من الصالحين في قول الحق ، واحتمال ما يحجره من أذى وبلاء كان المراعى في تاريخه كله ، يقول الحق ، ولا يبالى الوعد أو الوعيد ولا تشبه عما اعتقده أسباب الإغراء ، أو التهديد ، مهما كان مصدرها . . .

وقد احتمل من جراء ذلك عتاً كبيراً ، وجرت عليه خطية هذه خصومات طويلة المدى . . . ولكن ذلك لم يفت في عضده ولم يحول به عن « اليقين » الذى اعتقده وآمن به ، وعاش له . . . ومن أروع هذه الأحداث « قصة النار » أو قضية النار حدثنى الأستاذ عبد الحميد رشوان قال :

اعتدى على الشيخ المراغى بماء النار سنة ١٩٢٦ .. وكان في طريقه إلى المحكمة ، يتلو بعض آيات من القرآن ... واتهم في ذلك رجل كانت له قضية بالمحكمة العليا ، حكم الشيخ المراغى فيها بعدم الاختصاص ، وكان المجلس الملى قد حكم برفض بنوته إلى فلان باشا ... فرفع التماساً للمحكمة العليا الشرعية عن هذا القرار وقد أغراه بعض المحامين الشرعيين بأنه لا أمل له في كسب القضية ما دام الشيخ المراغى هو رئيس الجلسة ، وكان هذا الاعتداء قبلها بيوم واحد .. والغرض منه منعه من نظر القضية والحكم فيها .

.. وسارت النيابة في التحقيق ، ووصف الشيخ شخصية المتهم وصفاً دقيقاً للنائب العام (طاهر باشا نور) الذى تولى التحقيق .

.. وأخذت القضية دورها ، إلى أن وصلت إلى محكمة الجنايات فحكم على المتهمين الثلاثة ، ومنهم « فلان » هذا بأربع سنوات سجن وألغى جنيته تعويض .. وقد رفع « فلان » نقضاً إلى رئيس محكمة النقض وبذل أعوانه - وهم أثرياء - كل المستحيلات ، وذهب هو وأهله في ذلك إلى أبعد حد .. واستعملوا الشريف وغير الشريف من الوسائل .. ومضى محدثى يقول :

بمواقفهم . . . ، لا سيما في حادث دنشواي وألح في أن يكون
وكيلا عن الشيخ في هذه القضية ، فرفض الشيخ وقال :
إنني لا أسمح بضم أي محام مهما كان إلى أحمد بك لطفى لأنه
هو الذي تفضل بقبول المرافعة . .

فلما ازداد إلجأه قال له : اذهب واتفق مع أحمد بك فإن
وافق فلا شأن لي . .

وقد توجه هذا المحامي ، إلى أحمد بك ، فرحب به وضمه إليه
وقال : كلنا نريد خدمة العدالة والشيخ .
ومضى محدثي يقول :

وقمت بشراء رول القضية للمحامي الحديد ، الذي ترفع
في أول جلسة ثم أجلت القضية إلى ما بعد الصيف .

. . وذات يوم فبينما أنا جالس مع الإمام المراغي ، إذ دعي
إلى التليفون وسمعت الشيخ يقول : إن كان ضميرك يسمح ،
فلا مانع ، أنا لا أجبرك . . فلما عاد استفسرت منه عن الأمر
فحدثني فضيلته أن المحامي الأخير — طلبني يعتذر عن السير في
القضية ويقول إنه جد له من الظروف ما يدعوه أن يدافع عن
الخصم . . .

وضقت بالأمر وقلت للشيخ رضي الله عنه ، كيف يمكن
أن يتراجع هذا المحامي عنك أولا ، وبعد أن يدرس القضية ،

ويعرف أسرارها ، يترافع ضدنا فقال : لا حيلة لي في هذا
ما دام ضميره قد سمح له ..

وقعلاً ترافع المحامي في هذه القضية ، وكان لساناً غالية في
الجلدة والإساعة ..

... ثم حكم لمصلحة الشيخ .. وقضى له بالتعويض
وقدره ألف جنيه وقد أرسله إلى عائلة أحمد بك لطفي .. إذ كان
قد توفى إلى رحمة الله ..

ونحن نسجل هذه القضية ، كما رواها لنا ، محدثنا ..
نسجلها ، كصفحة ناصعة من صفحات الإمام المراغي ، فيها
كل شيء : الوفاء والنبل والرجولة والخلق ، وصدق المطران جوين
« مطران الشرق » حين قال للشيخ عند ما زاره في المحكمة العليا
الشرعية « إن الأثر الموجود في عنقك هو نيشان العدالة » .

* * *

كان من أبرز صفات المراغي أن يقول كلمة الحق ، دون
أن يخشى نتائجها أو عقابيلها ، وقد احتمل في سبيل الحق أثراً
ظل بارزاً في عنقه طوال حياته ، وكان هذا الأثر يعطى في كل
لحظة ، الرمز الحقيقي لإيمان الرجل بفكرته وتضحيته في سبيلها .

بين محمد عبده والمراغى وراث له طابع خاص

لم يثبت على وجه التحقيق أن « المراغى » تلقى على الإمام محمد عبده كثيراً من دروس الأزهر ، ولكن الثابت اليقين أنه استمع إلى دروسه الحرة في الرواق العباسى ، وكانت في التاريخ والاجتماع . . . ويغلب أن الشيخ عبده كان يقرأ مقدمة ابن خلدون ويشرح بعض فصولها . . . على طريقته الموسوعية . . . وأعجب المراغى بالشيخ عبده ، وارتبط به وأمضى أيامه في الأزهر ، على ذلك النحو الذى وصفناه ، يقرأ تقاريره وحواشيه ومتونه ، ولكنه لا يلم به كثيراً . . . ، وأتاحت له فترة الدراسة فرصة تكوين الآراء التى ترجعها إلى أعمال حاسمة فيما بعد (١) . . .

(١) كان الشيخ محمد عبده هو الذى يمتحنه في شهادة العالمية ، وكان الشيخ المراغى قد مرض قبيل الامتحان ولكن أصر على الذهاب فلما انتهى الامتحان قال له للشيخ عبده : لاحظت أنك محموم ، ولكنك كنت فوق الإجابة وظهرت النتيجة وإذا المراغى أول العالمية وقد دعاه الشيخ عبده إلى منزله تكريماً له .

واستمع الأستاذ المراغى لصبيحة محمد عبده ، تلك الصبيحة الأولى ، لإصلاح الأزهر ، فى أناة وثقة . . . وظلت هذه الثورة كامنة فى نفسه ، حتى أحالها بعد بضعة وعشرين عاماً إلى حقيقة واقعة .

ولما طلبت حكومة السودان من الشيخ عبده اختيار قضاة الشرع فيها كان المراغى فى مقدمة من اختارهم لأداء هذه المهمة . وذهب المراغى عشية السفر يودع الشيخ ، . . . يقول : ودعته ليلة سفرى إلى السودان لتولى قضاء مديرية دنقلة فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ فسألنى هل معك رفقاء السفر ، فقلت نعم ، بعض كتب آنس إليها وأستديم بها اتصالى بالعلم فقال : أو معك كتاب الإحياء . فقلت نعم قال : الحمد لله . . . هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرأ طويلاً دون أن يكون رفيقه . . . هكذا كان يرى الإمام محمد عبده « الغزالى » . وهكذا كان يعرفه المراغى .

لقد كان المراغى يحب الغزالى ، وهو يسجل ذلك فى مقدمة كتاب الدكتور أحمد فريد رفاعى إذ يقول : إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابى خطر بالبال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام .

وإذا ذكر ابن عربي خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرهما ، وإذا ذكر بالبال البخاري ومسلم وأحمد خطر رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ، لكل واحد قدرته وقيمه .

يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي المتكلم أمام السنة ، وحامي حماها ، والغزالي الاجتماعي ، الخبير بأحوال العلم ، وخفيات الضمائر . . ومكتونات القلوب ، والغزالي الفيلسوف ، الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف . . ، والغزالي المرابي ، والغزالي الصوفي الزاهد .

وإن شئت فقل ، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، ورجل متعطش إلى معرفة كل شيء ، نهم إلى جميع فروع المعرفة »

* * *

هذا هو الغزالي الذي أوصى به محمد عبده وأحبه المراغي . . وقد ظل المراغي معقود الأواصر بالإمام . . ، خلال إقامته في

السودان ، وتبادلا رسائل غاية في الحلال والخطر ، في
شئون الدين والوطنية ، وما زالت تشهد على تلك العاطفة القوية
والرابطة الحية بين رجلين من أبرز رجال تاريخ الشرق الحديث
يقول مؤلف كتاب الإسلام والتجديد :

« ومن تلاميذ الإمام ، الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي
اصطلحت صحافة العصر الحاضر على وصفه بأنه أكبر تلاميذ
الإمام ، كان شيخاً للأزهر من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٠ ،
فاهتم بإعادة تنظيمه على نحو واسع النطاق حتى يتفق وطايات
العصر الحاضر في مصر وقد صدرت خطة الإصلاح التي وصفها
في القانون المعروف بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ .

« غير أن الشيخ المراغي لاقى الشيء الكثير من معارضة
الإصلاحات التي كان يبغيها فاستقال من المشيخة ، وكانت
الصحف في سنة ١٩٢٩ - أي أثناء مشيخته الأزهر - تكتب
كثيراً عن أمر كان له حسن القول هو تخليد ذكرى الإمام ،
إما بالاحتفاظ بمنزله في عين شمس ، إما بالقيام بأى عمل آخر
من الأعمال التي تدل على التقدير القوي ، وكان من المتفق عليه
بشكل عام أن أليق الناس للنهوض بهذا هو الشيخ المراغي ، إذ هو
شيخ الأزهر ، ولم بالشيخ عبده صلات قوية قديمة ، ولكن الشيخ
المراغي استقال من الأزهر ولم نعد نسمع شيئاً عن هذا الأمر .

وكان الشيخ المراغى قبل هذا قاضى القضاة الشرعيين فى السودان وقد أسند إليه هذا المنصب بسعى أستاذه الشيخ عبده ، واشتغل فى السودان عدد آخر من تلاميذ الإمام إما قضاة أو مدرسين ، فى كلية غردون التذكارية « اهـ .

* * *

عند ما قضى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٦ . . قال للناس : من للأزهر . . ! وذهب ناس فى التشاؤم فقالوا : لقد أصبح الأزهر ميراثاً لا وارث له . . .

غير أن هذا كله كان وهماً من الوهم ، فقد كان المراغى هو أبلغ «إجابة» على الذين حملوا على الأزهر ، أعنف الحملات ، ووصموه بالرجعية والتخاذل ، والقصور عن المدنية . . ، وعدم الاستجابة للتطور .

وكان إلى ذلك رد «اعتبار» لما وجه إلى علمائه من عجز عن فهم رسالة الثقافة والحضارة واللاحاق بموكبها واستجابة للصالح منها .

وبالرغم من أن المراغى كان أحد أبناء المدرسة السلفية التى وضع بذورها الإمام محمد عبده ، فقد كان فى منهاجه وعمله وأهدافه جديداً فيه طابع الاستقلال والذاتية الخالصة .

كان المراغى يختلف عن كثير من تلاميذ الإمام ، كان

أكثر تحراً وأوسع أفقاً ، وكانت أسلحته ، وأساليبه ، في الدعوة إلى الإصلاح ، وإنفاذه ، تختلف عن أساليب من سبقوه أو عاصروه .

لقد كون رأياً عاماً في ميدانه ، وهو ما لم يتمكن غيره من تحقيقه ثم استطاع أن يقبض على ناصية الأمور ، في قوة ، وفي لباقة وهو ما لم يتم لأحد من قبله بعد أن تجنب الكثير من أخطاء من سبقوه . . . واستفاد مما ألم بهم من متاعب وأزمات .

* * *

لقد تسلم المراغي ميراث المصلحين ، السابقين ، وورث ذلك التراث العريض الذي يتمثل في ابن تيمية ، والغزالي ، والذي يتصل بحال الدين ومحمد عبده وبالرغم مما بين هؤلاء ، وهؤلاء . . . من خلاف ، فقد أخذ خير ما عندهم جميعاً . كان جمال الدين يرى إصلاح الحكومة الإسلامية . وكان محمد عبده يرى تربية جيل جديد صالح .

وكان كل منهما يصدر عن طبيعته وفي حدود الأسلوب الذي يراه سبيلاً إلى تحقيق نهضة الشرق غير أن المراغي كان لا يرى مانعاً من الأخذ بالوسائلتين معاً . . . على أساس تربية جيل جديد ، وتوجيه الحكومات الوجهة الخالصة .

ثم ركز جهوده في الأزهر ، حرصاً على تخريج طائفة

ممتازة تحمل رسالة الدين والدنيا معاً ، ولكنه لم يغفل عن الإنسانية العامة ، أو السياسة أو المجتمع . . . فكان له في ميادينها آراء حصيفة ، إذ كان شديد الإيمان بأن الإسلام جامع يتسع لكل جوانب الإصلاح ، ويستطيع أن يمد بأصدق التجارب التطبيقية في مختلف جوانب الحياة العامة .

كان المراغى يرى الدين كما رآه السلف الصالح يسيراً بسيطاً .

وكان يؤمن بالإصلاح والتجديد والاجتهاد ، كما رسمه ابن تيمية وابن القيم .

وكان يؤمن بأن الفقه والتصوف يمكن أن يجتمعا كما كان يرى الغزالي .

وكان يرى في إصلاح الأمة الإسلامية رأى جمال الدين ويرى في إصلاح الأزهر رأى محمد عبده .

* * *

ورث المراغى هذا الميراث العريض بحق . واستوعب ذلك التراث الإسلامى الضخم استيعاب فهم وتدبر . . . وتطبيق . . . فكان رضى الله عنه ظاهرة جديدة ، في عالمه وطريقته . . . كان إنساناً مميز الطابع والصورة والمظهر . . . كان عبقرياً ، ظل يتخفى في إهابة حتى جاء يومه ، اليوم الحق الذى وضعه

الله فيه ، في المكان الحق .

.. وهكذا ورث المرافي أجداد أسلافه ، في الإصلاح
والدعوة والأزهر جميعاً ، فكان بحق الخليفة الحق الذي يملأ الفراغ ..
ويرأب الصدع .

وظل « المرافي » ، يحفظ لأستاذه « محمد عبده » فضله ،
وكان وقياً . . . غاية الوفاء دعا إلى إحياء ذكره في ١١ يوليو
سنة ١٩٢٢ . . .

ولم يدع فرصة يذكر فيها فضل محمد عبده إلا انتهزها . .
وعندما احتفل بتكريمه في يونيو سنة ١٩٣٦ عند ما عاد
إلى منصبه في الأزهر ، في ذلك المهرجان الضخم الذي ضم عدة
آلاف من رجالات مصر وشبابها ، لم يلبث المرافي أن ذكر
محمد عبده وقال عنه إنه هو المصباح الذي أعتدى به . .
ولم يقف الوفاء عن حد الكلام . . يقال أو يكتب ،
في مقالات الذكرى ، أو في الصحف ، بل لقد بلغ حده المأمول
عند رجل له مثل نفسية الإمام المرافي ، هذه النفس الخيرة
الوفية التي تذهب في الوفاء إلى آخر الشوط .
حدثني الأستاذ عبد الحميد رشوان سكرتير محكمة عيون
السودان ، وقد رافق الإمام أربعين سنة قال :

كانت السيدة رضا بنت سعد بن حمادة حرم الأستاذ الشيخ محمد عبده تتناول معاشاً شهرياً قدره جنيه ونصف فقط من الحكومة ، وبغض مرتبات من الجمعية الخيرية الإسلامية والخاصة الملكية ، لا يتجاوز في مجموعها ثلاثين جنيهاً ، وكانت سيدة كريمة لا ترد سائلاً ، وكان يتردد عليها كثيرون من المحتاجات حتى ركبته الديون واستدان أكثر من ثلاثمائة جنيه ، وكانت هناك سيدات كريمات منهن ، والددة المغفور له محمد محمود باشا يساعداها على سبيل القرض ، حتى استبد بها الحال .

علمت هذا فأبلغته للأستاذ الإمام المراغى في منزله بجلوان فهاهنا الأمر وأمرني بالتثبت فأكدته له ، وكان صاحب المقام الرفيع على ماهر باشاً وزيراً للمالية ، وصاحب الدولة محمد محمود باشا رئيساً للوزراء فاتصل بهما وبعد يومين طلبنى الأستاذ وقال أخبر السيدة أن المعاش رفع إلى خمسة عشر جنيهاً ، وبعد أيام قليلة طلب منى أن أرافقه إلى منزل الشيخ عبده لمقابلة السيدة حرمه ، فانتظرت أمام قهوة السفور وذهبتنا معاً إلى عين شمس . ولم يخبرنى طوال الطريق عن غرضه . واستأذن على السيدة التى قابلته ومكث معها أكثر من نصف ساعة بمنزل المرحوم حموده بك عبده . . ثم انصرفنا ولم يحدثنى بما فعل . . ولا مررنا

على منزل الأستاذ الشيخ محمد عبده . . نظر إليه متأثراً وقال :
 كان هذا المنزل محط الآمال ، وأمل كل طالب . .
 غير أنني علمت بعد ذلك من السيدة رحمها الله ، أن
 الإمام المراغي طيب خاطرها واعتذر لها بأنه لم يكن يعلم حالها ،
 ووضع في يدها خمسمائة جنيه لسداد ديونها وسد حاجاتها . . ،
 وطلب منها أن تخبره عن كل حاجاتها بعد ، ولكن الموت عاجلها
 فقد كانت مريضة ، بعد أن قامت بسداد ديونها . . وعاشت
 بقية أيامها في حالة يسر ورخاء .

شيخ الأزهر

١

أربعة عشر شهراً

اختير الأستاذ المراغى شيخاً للأزهر سنة ١٩٢٨ فأمضى بها أربعة عشر شهراً . . . ولا شك أن هذه الفترة القصيرة . . . كانت من أخطر فترات الأزهر وأجلها شأنًا ، فقد وضعت البذور ، ثم تركتها تعمل عملها ، حتى آتت أكلها بعد خمس سنوات .

كان إقبال المراغى إلى الأزهر أشبه بالضياء الساطع الذى جاء بعد ظلام طويل . . . ، وبين وفاة الإمام محمد عبده ، ودعوة المراغى ربع قرن كامل من الزمان عاش الأزهر خلاله تلك الحياة التقليدية المضطربة ، غاية الاضطراب ، الحامدة غاية الحمود .

لا ننكر أن ضوءاً خافتاً ، ظهر مرة ، أو مرتين ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن أمراً حاسماً قد قطع به بشأن التجديد والإصلاح ، أو أن شيخاً معيناً وضع رأسه على كفه فى سبيل

تحقيق رسالة الاجتهاد أو الإصلاح .

ولا شك أن الفترة الطويلة التي قضاها الإمام «المراغي» بعيداً عن الأزهر قد منحته خبرة وتجربة طويلتين ، وهما له هذا البعد عن مركز الأحداث ، فرصة للدراسة والتأمل العميقين ، ومن ثم كان علاجه للأمور ، غاية في السداد ، وكان أسلوبه في وضع الخطط الصالحة مقبولا نيراً .

لا أقصد بهذا إلى أن «الظروف» هي التي أتاحت للأمام المراغي الفرصة ليكون عملاقاً في تاريخ الأزهر على هذه الصورة الباهرة . . ، وإنما كان الشيخ المراغي ، يؤمن بالأزهر منذ كان فيه طالباً . كان يؤمن بالإصلاح ، ويهوى أن يتم الرسالة التي بدأها أستاذه محمد عبده . فلما أتيت له الفرصة لبلى هذا المنصب الضخم استطاع أن يحقق الأمل المنشود على أوسع نطاق وأروع صورة . .

ظل المراغي بعيداً عن المحيط «العملي» للأزهر ، ربع قرن من الزمان ، فلما عاد كان أشبه بالرجل الذي وقف على الشاطئ طويلاً ، يرقب الأمواج ، ويسير غور البحر ، فلما نزل إليه بعد هذا الترقب ، والتخلف الطويلين ، كان أقدر الناس عليه ، وأملك الناس لزمومه .

. . إن ابتعاد «المراغي» عن جو العمل في الحياة الأزهرية ،

وما كان فيها طوال تلك الفترة من تيارات ودوافع ، كان على ما يبدو من الخير للأزهر ..

ولو أن الإمام المراغى ، كان مدرساً^(١) بالأزهر ، طوال هذه الفترة ، ثم وصل إلى المشيخة بعد ذلك ، لما أمكن أن يحقق برنامجه ، وينفذه على هذه الصورة الفريدة ، ولا أن يجمع حوله القلوب ، على هذه الصورة التي لم تتيسر إلا للقليل من القادة والزعماء والأبطال الشعبيين .

.. إن هذا الجنوح عن الأزهر من غير قصد ، أو تدبير ، أعطاه الفرصة الواسعة لدراسة الأزهر عن كثب ، ومراقبة تطور الحوادث هناك ، فلما اختير لمكانة الحق ، المكان الخليق به ، كان قد جاء في إبانه ، أشبه بالغيث حين يقع على الأرض المحبدة .

.. إنه جاء في الوقت المناسب الذي يستطيع أن يعمل فيه للأزهر كل شيء ، وأن يحقق الآمال التي ظلت تضطرم في صدره ، وتترقب الفرصة ، فأدى واجبه كاملاً ، وأنفذ مشروع أسناده محمد عبده .. على صورة تجلى فيها طابعه الخاص على أوسع نطاق ...

(١) هذا لا يمنع من الإشارة إلى أن الأستاذ المراغى درس للأزهريين عدة مرات على فترات متفاوتة قليلة ..

وقد كان من نتيجة هذا التدبير الإلهي الذي لم ترسمه رب البشر ، أن نجح الإمام المراغي إلى أبعد حد .
وليس أدل على ذلك ، - من أنه ما كاد يضع قدمه في الأزهر حتى تجمعت القلوب حوله ، على صورة لم تسبق لشيخ من شيوخ الأزهر من قبل . فلما تقدم الإمام ببرنامجه ، ولم يستطع أن يحققه على الصورة الكاملة التي رسمها ، ووجد العقبات تتجمع في طريقه ، استقال في أكتوبر ١٩٢٩ بعد أن أمضى في منصبه أربعة عشر شهراً غير نادم .

وكان ذلك من التقاليد الجديدة التي سنها الإمام الخليل ، فلم نسمع من قبل أن شيخاً من شيوخ الأزهر قد وضع مثل هذا البرنامج ، فلما لم يتحقق مشروعه على أكمل وجه ، استقال على هذا الوضع الفريد .

لقد خلب هذا ، ألباب الشباب المتحمسين المؤمنين بالإصلاح ، الذي كان قد بدأ يقض آماله في الرجل الصرد ، فكانت الاستقالة تركية لشخصية الإمام ، رفعت قدره في نظر التلاميذ - وكان رفيع القدر من قبلها - إلى أبعد الحدود

كان تصريف الإمام المراغي « حدثاً » في تاريخ الأزهر ولا شك ، وهو السر فيما دفع الأزهر إلى الثورة من بعد .
كان الإصلاح في دم المراغي ، فلما جاء إلى الأزهر ،

كان لا بد أن ينفذ وصية شيخه ، وأن يحقق رسالة آمن بأنها
العلاج الوحيد لحسد طال به السقام . . .

لقد وضع حياته في خدمة هذه الرسالة ، وصدق الله في
إيمانه بها ، فكان حقاً على الله أن ينصره .

كان ثورة على الخمول والحمود والكسل والرجعية والتقليد
فكتب مذكرته الخالدة بدم القلب . . . كان كل حرف فيها

عن تجربة من صميم الحياة ، وعن عبرة في أعماق النفس . . .
ولا شك أن هذه الرسالة التاريخية الضخمة ، تعد من أعظم

دقائق الأزهر في تاريخه الطويل . . . والتي لا يضارغها في تاريخ
الأزهر الفكرى نفسه ، شيء ما . . .

وإن كانت تبدو هذه الرسالة — الآن — أنها عادية ،
فقد كانت في ذلك العهد البعيد ، أشبه بقنبلة مدوية ، انفجرت

في محيط هذا الحصن العتيق .

كان العلماء يمشون في الطريق المرسومة التقليدية ، الحياة

الرتبية الجملة يمتاعب الماضي وغباره ومساويه . . . ، والكتب

الصفراء المزعجة ، وطريقه التدريس العقيمة ، الجلوس إلى

الحصر ، الحلق حول الأعمدة ، الجراية . . .

وبينا كان الأزهر كذلك ، كانت الدنيا في خارج محيطه

تزلزل ، بالنظرات الجديدة ، وكان حملة ألوية التجديد الفكرى

يقرعون الأبواب في قوة ، وعنف ، ويتحدثون عن حضارة الغرب ، وينعون على الشرق ، هذا الإسلام الخامد ، الذي كان إذ ذاك ممثلاً في الأزهر ورجاله . .

وكان يشارك في هذه الحركة الجديدة « شباب » من الأزهر نفسه ، ممن ضاقوا به من قبل ، وتركوه . ولحقوا بركب النهضة . بينما كان هذا يحدث ، كان الأزهر نائماً ، وكان مصيره ولا شك يتقرر في هذه المعركة الجديدة الحاسمة . التي كانت تريد أن تنكر تاريخ الشرق ، وأمجاده ، وتراثه ، ودينه جميعاً .

٢

منهاج

وفي يونيه ١٩٢٩ حصل محرر «الهلal» على حديث من الإمام المراغى رأينا أن نسجله هنا صورة صادقة لهذه الحقبة من حياة العالم الكبير قال :

«الشيخ المراغى رجل يتوسم فيه الصراحة ، يخاطبك في تودة وكأنه يناقشك فيتلو عليك البرهان بعد البرهان ، وهو رجل دين قبل كل شيء ، ولكن ما أغرب ما يؤثر فيك كلامه وحديثه إذ تشعر منه أنه ليس في الإسلام كهانة ، وهو ينظر بعينين ملؤهما الإخلاص ، تتجلى فيهما الحماسة عند ما يذكر عيوب الأزهر وطرق إصلاحه

وقد تخرج من الأزهر سنة ١٩٠٤ وحضر دروساً للشيخ محمد عبده وتعين قاضياً في دنقله وبقى بالسودان مدة غير قصيرة عاد بعدها إلى مصر حين تعين مفتشاً دينياً في وزارة الأوقاف وتعين بعد ذلك قاضى قضاة السودان ، ثم رئيساً للمحكمة الشرعية في مصر ، ثم شيخاً للأزهر الشريف .

وربما كان أول شيخ للأزهر له سكرتير من طبقة
الأفندية (١).

— بعد خمس سنوات أى سنة ١٣٥٣ يكون قد مضى
على الأزهر ألف سنة أفلا تظنون فضيلتكم أنه يجدر بنا
الاحتفال به باعتباره أقدم جامعة فى العالم ، وهل تعتقدون
أن يكون الاحتفال مقصوراً على الشرقيين أو يدخل فيه
الغربيون أيضاً

— إن على باشا مبارك يذكر فى خطبه أن الأزهر أسس
سنة ٣٦١ فبقى لنا ١٢ سنة حتى يتم الأزهر الألف ، وقد فكرنا
فى هذا الاحتفال عند ما شرعنا فى وضع التصميم لبناء جديد
لكليات الأزهر ، وكانت نيتنا أن نجعل الاحتفال بالبناء
الحديد احتفالاً بمرور ألف سنة على الأزهر ، ولكن يظهر
أننا سنضطر إلى الاحتفال بالبناء أولاً ، أما الاحتفال بمرور
ألف سنة ففكرة جديدة بالتنفيذ ورأى أن يكون عاماً يدعى
فيه علماء الغرب والشرق .

— ما هو انتقادكم على الأزهر بحالته الراهنة
— كان الأزهر قديماً يسد حاجة البلاد لأنه لم يكن يعرف
فى مصر معهد للتعليم يفضله ، وكان علماءه إلى زمن محمد على

مجموعة المتعلمين في القطر ، ولم يكن الناس يشعرون بالحركة العلمية في الخارج ، ولا يعتقدون أنه في الإمكان أبدع مما في الأزهر ، ولكن انتشار المدارس النظامية وانتشار المطابع والمجلات وحركة الرقي العام في الأمة - كل هذه كان من شأنها أن تجعل الناس ينظرون إلى علماء الأزهر نظرهم إلى الشخص الذي لا يكفي حاجة الناس ، وأرادت الحكومة أيام علي مبارك باشا أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم فلم تجد كفايتها لأن طريقة التعليم القديمة ، لم تكن تلائم حالة النشء ، ولهذا السبب اضطرت الحكومة إلى إنشاء « دار العلوم » وجاءت بالطلبة من الأزهرين أنفسهم ومن هذه المدرسة تخرج معلمو اللغة العربية في المدارس الأميرية ، وأرادت الحكومة أيضاً أن تصلح القضاء الشرعي فلم تستطع أن تعول على علماء الأزهر فاضطرت إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعي ، فهذا الأزهر الذي يختص بدرس الدين واللغة لم تجد الحكومة فيه حاجتها من علماء الدين واللغة واحتاجت إلى إنشاء مدرستين خاصتين لهما ، بل لقد أرادت وزارة الأوقاف في العام الماضي إنشاء مدرسة للوعظ والإرشاد لأنها ظنت أن علماء الأزهر غير قادرين على تأدية هذه المهمة ، وكان لهذه المدرسة مخصصات في ميزانية سنة ١٩٢٨ فتدخلت أنا ومنعت إنشاءها اعتماداً على

أننا نستطيع بإصلاح الأزهر أن نستغنى عنها

— ما هو السبب في عجز الأزهر في هذه الشؤون

— هو الاختصار على اللغة والدين دون ما يلائمهما من

العلوم الكونية التي ترتبط بها ، فرجل اللغة يجب أن يدرس

الأدب ، والفقيه يحتاج إلى المسائل الاجتماعية ، وقد

كان المتقدمون من الفقهاء يدركون القيمة في درس العلوم

التي ترتبط بالدين ، بل كانوا يبالغون أحياناً في ذلك

حتى أن فخر الدين الرازي عند ما فسر القرآن تماشى في

شرح العلوم التي تتصل بالتفسير بحيث يشعر القارئ أنه

أهل التفسير أو اختصره مع بسط للكلام في هذه العلوم .

فالأزهر في حاجة إلى أن يدرس طلبته العلوم الكونية

لكي يدرسوا العلوم الدينية ، ونحن عاقلون الشية على أن

نلغى مدرستي القضاء الشرعي ودار العلوم ونحني علومهما

في الأزهر .

وقد اخترنا معلمين أكفاء لقسم التخصص من العلماء

وغير العلماء للقيام على تدريس التاريخ والأدب والأخلاق

والتربية والفقه .

وهناك ظروف جعلت الأزهر يتدهور فإن نظام الحراية

جعل القادر على التعلم ينصرف إلى مدارس الحكومة وغير

القادر ينصرف إلى الأزهر ، وكانت أبوابه مفتوحة لكل طارق ، وكان في هذه الحراية ما يرغب بعض الطبقات في الاتصال به ، فناء الأزهر بكثرة الطلبة وساءت الامتحانات فخرج علماء يشكو الناس منهم بدلا من أن يهتدوا بهديهم .
 — هل تنظرون إلى علماء الأزهر كأنه جامعة شرقية تخصص لعلوم الإسلام والعربية أو جامعة عمومية مثل جامعات أوروبا

— انظر إليه باعتباره جامعة خاصة بنشر الثقافة الإسلامية ولكنني لا أرى من الضواب أن أعارض في ثقافة الغرب إذا كنا ننتفع بها في فهم ديننا ولغتنا والتفقه فيهما ، فللمغربيين طرق في دراسة الأدب وطرق الامتحانات والتنظيم والبحث علينا أن نقتبسها كلها

— ولكن ماذا يكون موقفكم إذا كانت نتيجة البحث تخالف أوامر الدين

— تريد أن تقول إن هناك نظريات أثبتتها العلم تخالف ما ينص عليه الدين ، فأنا أقول إن هذه النظريات إن كانت نضجت وصحت عند العلماء وثبتت ومضت عليها المدة الكافية وجب علينا أن نوفق بينها وبين الدين ، فالقرآن مثلا ذكر أن لله وجهاً وأنه يستوى على العرش ، وهذه الأوصاف توهم

أن الله جسم ، ولكن الفقهاء عندما تفقهوا بالفلسفة أولوا هذه الأوصاف بما يوافق التجرد في ذات الله ، وكذلك يجب أن نفعل ، ولكن إذا كانت النظرية غير ناضجة فيجب أن نقف منها موقف الشك فنعرضها على ديننا فإذا وافقته فذاك وإلا فنرفضها .

— ما هي الإصلاحات التي تنوون فضيلتكم إنفاذها بالأزهر

— نريد أن نقصر الأزهر على الأقسام العالية وأقسام التخصص فقط ، أما القسم الابتدائي والقسم الثانوي فسنؤسس لهما مدرستين بالقاهرة وهذان القسمان موجودان الآن في بعض مدن الأقاليم مثل الزقازيق وطنطا والإسكندرية ودسوق ودمياط . وسيكون التدريس في القسم الابتدائي والقسم الثانوي مساوياً لمستوى الكفاءة مع حذف اللغة الأجنبية . وبعد ذلك يدخل الطالب الأزهر وهو ثلاث كليات الشريعة : للقضاء والفقهاء ، اللغة العربية : وهي تشبه دار العلوم بل المراد منها أن تقوم مقامها ، أصول الدين : حيث يدرس الطالب جميع الأديان ومقابلة كل دين بآخر . . . ، وفي كل هذه الكليات الثلاث يدرس الطالب لغات أجنبية ، ولغة شرقية قديمة أو حديثة .

— كنتم فضيلتكم في السودان فهل درستم موضوع الزنوج

الوثنيين ، وهل من الممكن نشر الإسلام بينهم ، وهل يحتاج نشره إلى مبشرين

— الإسلام ينتشر في أفريقية على أيدي التجار العرب الذين ينقلون إلى الزوج دينهم وبضائعهم ، ثم إن العبيد الذين اعتنقوه وعادوا إلى أوطانهم قد أخذوا الإسلام معهم ، وهم ينشرونه بين إخوانهم .

وهذه بالطبع طرق غير منظمة ولكنها تثمر بعض الفائدة ، أما الاعتماد على علمائنا فإسراف في التفاؤل قبل أن تؤهلهم لدراسة التبشير ، وأمامهم أن يسعوا أولاً لهداية العامة عندنا إلى فهم حقيقة الدين الذي سيثون فهمه كثيراً ثم يمكننا أن نفكر في هداية زوج أفريقيا ونشر الدين الإسلامي بين الأمم .

* * *

وهذا الحديث الذي أدلى به الإمام سنة ١٩٢٩ رسم الخطوط الرئيسية الواضحة لأفكاره ، هذه الأفكار التي نفذها فضيلته على أوسع نطاق عند ما عاد إلى الأزهر ١٩٣٥ ويتصل بهذا الحديث ما ورد في خطبته في حفل تكريمه حين رسم مهمة الأزهر كما يراها . . . قال :

« الأزهر هو البيئة التي يدرس فيها الإسلام ، الذي أوجد أمماً من العدم وخلق تحت لوائه مدينة فاضلة ، وكان

له هذا الأثر الضخم في الأرض ، فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية ، يعدون قاصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم نهأوا في أدائها وأنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولعلمهم وأنفسهم ، إلا إذا فهموا هذا الدين حق الفهم . وأجادوا معرفته ولغته ، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف الماضين ، ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه ، مما هو متصل بالدين وأصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التي تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستفادة من العلم ، وممكنهم من نشر الثقافة الإسلامية في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية ، وللمسلمين في الأزهر أعمال ، من الحق أن ننبه أهلها لها : أولاً : تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة في المعارف وهدايتها إلى أصول الدين

ثانياً : إثارة كتوز العلم التي خلفها علماء الدين
ثالثاً : عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً في ثوب تقى خال من الغواشي المشوهة لجماله .
رابعاً : العمل على إزالة الفوارق المذهبية ، أو تضيق شقة الخلاف بينها . فإن الأمة في غنى عن هذا التفريق
ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف

ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهـدى إلى الحق ،
 فى أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب قد أحدثتها السياسة
 فى القرون الماضية لمناصرتها ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية
 وبقيت تلك الآراء الدينية لا تتركز إلا على ما يـضـوعه الخيال .
 وقد عمل الإمام لهذه الأغراض ، وبلغ فيها غاية ما أتاح
 له بقاءه فى الأزهر . . .

* * *

ولم يقف الإمام عند حدود رسالة الأزهر ، بل جاهر
 بالدعوة العامة ، وعمل على إصلاح الحياة الاجتماعية للمسلمين ،
 وحل قضاياهم وقال : « إن لدى الأمة قضايا كثيرة معقدة فى
 حاجة إلى الدرس والبحث وفى مقدمتها :
 أولاً : قضية الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال
 الراشدين .

ثانياً : حماية الدين من العدوان ، والدعوة إليه كأمر الله .
 ثالثاً : قضية التعليم الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته
 التجارب وأخرجته العقول .

رابعاً : قضية نظام الأمم الإسلامية ، وارتباطها بعضها
 ببعض ، ارتباط تعاون وتناصر .

خامساً : قضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتـدبـير

أمرهم بحيث تخفف عنهم أعباء الحياة .
سادساً : مقومات الأمم الإسلامية التي يجب أن نحافظ عليها .

وهذا ولا شك برنامج ضخم ، كان الإمام الميراثي قد
وطد العزم على تنفيذه . . وقد عمل فيه جهده وهو ليس
بالجهد القليل .

٣

أعظم وثيقة في تاريخ الأزهر

كان لا بد أن يضرب المراغى ضربته ، ويلقى قبلته ،
فتحدث دويماً في صحن الأزهر وفي محيط المدرسة الجديدة جميعاً ..
وكان عليه أن يجمع ثوبه ، ويمضى حتى تهدأ الضجة ..
ويتكشف الغبار .. وتزول شدة القارعة ..

ولم يكن من طبيعة الأمور ، أن تلقى مذكرة غاية في
القوة والوضوح والصراحة ، قبولاً ، من تلك الطوائف الجامدة ،
التي أثقلت أعباء السنين ، وقيدتها إلى ماضيها المألوف ، التي
ربما كانت تضيق به .. ولكنها لا تجد السبيل إلى الخلاص منه .
فكان لا بد أن تقف الحكومة في وجه هذا الإصلاح ،
لأنها كانت تعجز عن معرفة مداه .. ، والحكومة صدى للرأي
العام — أحياناً — في جموده وضعفه وقصوره عن التحليق في
الآفاق البعيدة .

غير أن المراغى ، كان قد حدد موقفه من الأزهر ،
ورسم منهجه في الإصلاح ، وكشف عن خطته في البعث

والتجديد ، في دقة ووضوح .

ومضى الشيخ فاعتكف خمس سنوات . . .
وفي خلال هذه الفترة كان الأزهر قد بدأ يغيب ، ثم
تفتحت الآذان والعيون فيه على الحقائق والمتاعب ، ثم أخذ
ينحسرون رويداً رويداً « المفتاح » إلى حياة جديدة .
لم يكن هذا المفتاح غير « المراغي » بتضح هذا من الثورة
التي قارها الأزهر ١٩٣٥ مطالباً بعودة المراغي .

فقد أحس الشباب الجديد أنه لن يستطيع الحياة في
جوانب الأزهر على هذه الصورة بعد أن قطعت الأساليب
الحديثة في التفكير والاجتماع والبحث . . . ووسائل الحضارة
شوطاً طويلاً باعد بين الأزهر وبين الحياة ممرجة أشد ظملاً
وعرضاً مما كان قبلاً . . .

وهنا صدرت تلك الصيحة المعبرة « إما بالمراغي ، وإما
ندع الأزهر لليوم والغربان » وكان ذلك غاية الحق ، لم تكن
هذه العبارة الثائرة من كلمات الحامسة الفؤارة ، وإنما كانت
من صميم اليقين والاعتقاد والتقدير . . .

وجاء « المراغي » هذه المرة ، والأمل معقود عليه .
بحق أن يتعقد الأمل بالرجل الذي ملأ صدره حب الأزهر
وإصلاحه ، والذي كان في كل لحظة ، على استعداد لأن

يترك الأزهر ، إذا وقفت العقبات في سبيل رسالته .

... وكانت « المذكرة » نبراسه ... ونهجه .

هذه المذكرة التي وقفت بالأمس أهواء الجهل واصار
الحمود وعوامل الاستعمار ضدها وهي كما وصفها الزيات
« مقطع الصواب في إصلاح الأزهر منهجاً وغاية » ، وما نظن
أحداً ممن تحرى وجوه الإصلاح لهذه الجامعة الإسلامية
العظمى ، قد بلغ من ذلك ما بلغ المراعى » .

* * *

وفي هذه الرسالة تتجلى عبقرية الإمام ، وطريقته في
العرض ، وأسلوبه البليغ الذي يتسم بالدقة العجيبة ، كأنما
يضع الألفاظ في مواضع لو رفعت منها ووضع غيرها لما
انتظم عقد القول .

وتلك مزية عجيبة يلمحها كل من قرأ للإمام فصلاً من
فصوله ، أو بحثاً من بحوثه وهي تعطى المؤرخ الباحث ،
صورة واضحة للنفسية المشرقة ، صورة الرجل الذي يكشف
في حصافة ودقة ولباقة ، تبيح له أن يقول كل شيء ، دون
أن ينبو معه لفظ أو يضيق به أحد . . ولقد علمت من بعض
من لهم صلة بالإمام أنه كتب هذه الوثيقة في جلسة واحدة ،
ومجمل ما تضمنته المذكرة :

« يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة وأن تدرس السنة دراسة جديدة وأن يفهما وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعاني »

« يجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وابتدع وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة »

« يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب للمذهب وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة »
 « يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ليظهر للناس يسره وقدره وامثاله عن غيره من موطن الاختلاف »

« يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها »
 « يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها

الأسلاف

« يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة »

« يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين ، لأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام ، ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة ، وإن لم يفعل

هذا يكون عرضة للنفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض
 الأمم الإسلامية وكما حصل في الأمة المصرية نفسها إذ تركت
 الفقه الإسلامي لأنها وجدته بحالته التي أوضله إليها العلماء
 غير ملائم . . . »

السنوات التسع في عمر الأزهر

«لما تحت راية المراهي ، وأما إلى القرى تاركين الأزهر
للبوم والغربان» (١)

تلك كانت صيحة ١٩٣٥ ... عام المرحلة الأولى

لإمامة المراهي ، لقد أفتت هذه السنوات الخمس ، كل
إنسان في مصر ، من الأزهر إلى الحكومة إلى رجل الشارع ،
بأن الأزهر في حاجة إلى المراهي . . .

لقد اضطربت الأمور في الأزهر في أواخر أيام الشيخ
الأحدي . . . واتجهت أنظار رجال الأزهر وشبابه ، إلى
شخصية واحدة ، تستطيع أن تعيد الأمور إلى نصابها ،
هي شخصية الرجل المعتزل . . . ، فلما جاء المراهي ،
بالانتخاب الإجماعي . . . ، ولم يعد بالوسائل السياسية
الحزبية التي تفرض الناس أحياناً على المناصب .

(١) كان هذا لقاء الشيخ أحمد حسن الباقوري ، وهو قائد ثورة شباب
الأزهر ١٩٣٥ .

كان كل أزهري ينادى بالمراغى العملاق ، ويهفو
إلى الروح المراغية القوية .

* * *

حدثني الأستاذ أبو الوفا المراغى فقال : كان عهد المراغى
الأول فى الأزهر قصيراً ولكنه كان خطيراً بآثاره ونتائجه . . .
خطيراً فى تاريخ الشيخ فى الأزهر ، وفى تاريخ الأزهر ،
وفى نفوس الأزهريين . . فقد كان لآرائه فى المذكرة وفى القانون
موقعها فى نفوس طلاب الأزهر وقلة من علمائه . . . كانوا
قد تحققوا من حقيقة ما يسمعون عنه ، فاجتمعت قلوبهم
عليه والتفوا حوله ، حتى إذا قبضت الظروف باستقلامته تبعته
نفوسهم وظلت تهفو إليه قلوبهم ، وظل أملمهم المرجى وإمامهم
المنتظر ، وما تركوا فرصة للتعبير عن تعلقهم به حتى انتهزوها
بما سمحت الظروف به إذ ذاك ، وكانت ظروفًا قاسية ، وقد
لاقوا فى سبيل ذلك عنتاً كبيراً أذنت تلك الأحوال بالتحول ،
حتى قام الأزهر على بكرة أبيه ، وفى مظاهر من العنف
والشدة . . ومن ورائهم الأمة جميعاً ، يطالبون بعودة الشيخ
إلى الأزهر لوصل ما بدأ وينفذ ما صمم .
ولم يجد المسؤولون إزاء هذا الإجماع الرائع والتعلق الشديد ،

بدأ من النزول على حكمه فعاد الشيخ إلى الأزهر عودة القائل
المظفر .

* * *

وقد أجمعت كل المصادر على أن الفترة بين استقالة
الأستاذ المراغي وعودته كانت مضطربة غاية الاضطراب
وإن كان الشيخ المراغي هو الذي أعد قانون إصلاح
الأزهر ، إلا أنه قد صدر معدلا في عهد خلفه الشيخ
الظاهري . . وأطلق عليه قانون سنة ١٩٣٠ .

فلما عاد المراغي إلى الأزهر بدأ بإعادة النظر في قانون
سنة ١٩٣٠ وعدل فيه بما أثبتت التجارب وجوب تعديله ثم
أخذ في أسباب تنفيذه ، وكانت الأسباب قد تهيأت لذلك ،
وزال من طريقه كثير من العقبات .

* * *

وبدا الشيخ إصلاحاته . . التي ضمنها مذكرته والتي
كان قد تحقق بعض ما تضمنته وهو يقسم القسم العالي بالأزهر
إلى كليات ثلاث . . . ، الشريعة واللغة وأصول الدين ثم
بدأ الإمام ينظم البعثات ، وأنشأ مجلة الأزهر ، وقسم الوعظ ،
ومعهد القراءات ولجنة الفتوى ، وأنشأ المدينة الأزهرية ،
ومكتب البحوث الثقافية ، والمعاهد والوحدة الطبية . . .

وقد نظم هذه المشروعات القوانين الخاصة بها ، والأوضاع التي تدار على أساسها ، وقد جاءت جميعها استجابة للحاجة الماسة إليها ، وتحقيقاً للغرض الذي كانت ترمى إليه في نقل الأزهر من حال إلى حال . .

لقد هنر المراغى ، في هذه الفترة التي أربت على تسع سنوات ، الأزهر بعنف فأنزل من شرفاته آثار الحمود . . . لقد كان ثورة على النظم البالية ، لا يقف أمامها شيء . . . ينقل بها الأزهر من « الجامع » . . إلى « الجامعة » ومن الماضي إلى المستقبل . ومن مفاخر أعماله — ولا شك — قسم الوعظ والإرشاد الذي يخرج اليوم أولئك الأعلام الذين يذيعون في الناس كلمة الله في أسلوب سمح وعبرة جميلة بعيدة عن الغلواء والحمود .

وقد عيب عليه أن يعمل على إرضاء جميع العناصر في الأزهر ، وتلك ولا شك محمدة الرجل الواسع الأفق ، الرحب الفناء . وهي السياسة الجامعة الحصيصة ، لرجل حمل على كتفيه العريضتين ، أحجار الأساس في الجامعة الأزهرية من جديد ، كما لو أن جوهر الصقلي قد انبعث مرة أخرى .

وإن يكن « جوهر » قد بنى الحجر ، فإن المراغى قد بنى الجوهر . . وإن كنا نرى « إصلاح » المراغى للأزهر

اليوم وكأنه مرحلة طبيعية جاءت على يد مصلح ممتاز ، لأننا
ولا شك نخش من قدر الرجل ونسى ما لقي من متاعب
ومعارضة وخصومة . لم يكن الأمر بهذا اليسر ، الذي تدبر
به الحديث اليوم . . . ، لقي الشيخ من الهجوم العاصف
ما لا سبيل إلى تفصيله ، فليس ذلك موعده ، غير أنه احتمل
ذلك في أناقة وصبر وخلق . . . فلم يحابه خصما ، ولم يتفهم ،
ولم يأخذ أخذة القادر بل عفا . . . فقد كان يبنى « الرأي » عند
الله و « خلوداً » . . . وكان أكبر من أن يرى الصغائر ، أو
يقف عندها .

وكانت الأيام قد أمدته بالحكمة والتجربة والخبرة . . .
ولم تخش متواعه التسع هيئة ، بل كانت مجهدة ،
كان يضع استقالاته في حبيه ، تجده على استعداد في أن
يعطنها في أي وقت ، إذا عورض أو وقف إنسان في طريقه . . .
وكون المرائي من حوله حبهة قوامها العلم والفهم . . .
ثم استحصدت هذه الحبهة حتى أصبحت زعامة قوية ضخمة ،
لا يستطيع شيء أن يقف أمامها وهذا الذي وصل إليه المرائي
كان قد عجز عنه جمال الدين . . .

وامتطاع المرائي أن يكسب عطف الملك على الأظهر ،
وهو ما لم يتحقق للشيخ محمد عبده ، وكان سبباً من أسباب

عجزه عن الإصلاح ، وعقبة من عقبات وصوله إلى أهدافه ...
ومع هذه القدرة على مواجهة الأحداث ، فهو لم ينحن ...
وكانت كرامته عنده فوق كل شيء ...

لقد نيطت به زعامة الأزهر في سن الثامنة والأربعين ، وهي
سن باكرة بالنسبة لهذا المنصب الضخم ، ولكن شخصية
كانت قد استحصدت وقويت ، بعد أن واجه من التجارب
والأحداث ، ما أكسبه خبرة بعيدة المدى ...

وكان الرجل غاية في النشاط والحيوية وشباب القلب ... ،
وكان محباً للأزهر ، مؤمناً بحقه في النهوض والحياة والتجدد ...

* * *

عمل المراغى على تنظيم الأزهر سواء فيما يتعلق بمستقبل
خريجه أو لعلاقته بالدولة وبالأمة ...

ومما يرويه الشيخ أبو الوفا المراغى ، أن الإمام وضع
في القانون فقرة صغيرة لم يتنبه إلى خطرها أكثر الناس ولم
تظهر قيمتها في مستقبل خريجي كلياته إلا عند التطبيق ،
تلك هي : (أن خريج كلية اللغة والشريعة بالأزهر صالح
للتدريس بمدارس الحكومة) فلما خرجت الكليات طالب
بعضهم بالتعيين في مدارس الحكومة ، وهنا ثارت ثائرة مدرسة
دار العلوم وأنكروا عليه ذلك فقال للمسؤولين إننى أطالب

ب تنفيذ القانون ، فقالوا له وأين ذلك في القانون ذلك الحق ، فأحلمهم على تلك الفقرة . . .

وتوثرت العلاقة بينه وبين الحكومة إذ ذلك ، وهم بالاستقالة ، لولا أن تدخلت جهات في الأمر ، وأجيب الشيخ إلى ما طلب .

* * *

ومن أعماله أنه أنقص محضصات شيخ الأزهر وحول حصنة من بعض الوقفيات إلى وزارة الأوقاف حتى أصبح الدخل ٤ آلاف جنية سنوياً بعد أن كان ٨ آلاف . . .

وقد استبدل « جرایة » الخبز بالنقود ، وقصد بذلك إلى رفع معنوية « النفس » الأزهرية . . . وتحويلها من وضع إلى وضع .

* * *

ويصور الإمام كيف انتقل الأزهر من حال إلى حال عند ما احتفل بتكريمه صيف ١٩٣٥ فقال :

« يسهل على قبول هذه المتن كلها واحتمالها إذا أذتم لي في صرف هذه الحقاوة البالغة عن شخصي الضعيف واعتبارها موجهة إلى الأزهر الشريف التي تجلونه جميعاً . . .

« دل هذا الاجتماع على أن الأزهر خرج من عزلته التي طال أمدها ونهض بشارك الأمة في الحياة العامة وملاساتها ليستفيد ويفيد .

« وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكري الذي
تسأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن في
الحياة-معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ،
وطرائق للتعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها .

« ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب
والهندسة والتاريخ في الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ،
ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة
في داره على أن نكتم الأمر لثلاثتهم الناس ويتموننا بالزريع
والزندقة

« والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة القديمة
والحدیثة ، وتدرس الملل والنحل وتقارن الديانات وتعلم لغات
أجنبية وشرقية وغربية »

* * *

وقد أثير في يوم ما ، التفكير في إنشاء منصب ديني كبير
يطلق عليه « شيخ الإسلام » وشرح لهذا المنصب الأستاذ
المراغي و . . سارت الفكرة في طور التنفيذ ، ووضعت
الشروط والنظم الخاصة بها ومنها أن يكون من حق شيخ
الإسلام ، الإشراف على الأزهر ، وتعيين شيخه ، الذي يعد
بمثابة مدير للجامعة الأزهرية . . .

...

وعنى الإمام المراعى بتحقيق آمال الإصلاح فى العقيدة .
فكان مما فكر فيه مسألة « الطرق الصوفية » . وقد عمل على
اتخاذ بعض المشاريع التى من شأنها رفع مستوى الصوفية ،
وسار فى فكرته هذه حتى رشح فعلاً أحد كبار جماعة كبار
العلماء شيخاً لمشايع الطرق للصوفية ...
وكان رضى الله عنه بصدد وضع نظام شامل لهذه
الطرق يرفع مسئولاها ويحفظ لها كرامتها .

...

وبعد ، فقد كانت « أيام » الشيخ المراعى فى الأزهر حافلة
بمؤامرة الإنتاج ، ببلدة الأثر ...
وقد روى لى الدكتور صفوت ، وكان طبيباً متخصصاً ،
أنه طلب إليه يوماً أن يسارع إلى الإدارة الأزهرية ، فذهب
ووجد الشيخ مسجى ، على أحد الأرائك فى حجرة مكتبه .
وكان قد أصيب بنحة صدرية ، فلما قلت له : ألا ترى
من الخير أن تعود إلى البيت ؟
فقال لى ، لا . . . لن أعود الآن ، اذهب واحضر أدوائك
وتعال أعمل اللازم .
وكنيت أعلم إصراره ، وأن كلمة لا . . . منه إنما جاءت

بعد دراسة وتفكير ، وأنه لا يمكن نقضها . . .
 فأجريت اللازم له طيباً ، وظل الأستاذ في مكتبه حتى
 الساعة الثانية ثم عاد إلى داره كالمعتاد .
 وقد تقصيت أسباب ذلك فعلمت أنه في نفس الوقت
 الذي أصيب فيه الشيخ ، كانت تطبع في مكتبه أسئلة
 الامتحانات ، ولهذا رضى الأستاذ أن يظل في مكتبه بالرغم
 من تعرضه للخطر ، حتى لا يقع محذور يكون له أثره السيء
 في سمعة الأزهر التي كان يضعها فوق كل اعتبار .

* * *

في السنوات التسع أنجز المراغى للأزهر من مشاريع
 الإصلاح ما رده به الحياة إلى هذا المعهد المرموق ، لقد أعاد
 إليه شبابه وبث فيه الضياء من جديد ، فأشرق جنباته ،
 وازدهرت معالمه .

نقل المراغى الأزهر من الموت إلى الحياة ، ونقل الدين
 من التقليد إلى الاجتهاد ، وفتح باب الأمل أمام الأزهرين ،
 وهياً الجو لعالمية القرآن

في خلال هذه السنوات التسع القليلة في عمر النهضة ،
 استطاع المراغى أن يعمل كثيراً ، وأن يرى كيف تحققت
 آماله ، وأنتج غرسه . .

الأزهر الجديد

مضى على وفاة الإمام المراغي سبع سنوات ، هي لا تشك
 فترة قليلة من عمر الزمن ، ولكنها من جيليات التاريخ المعاصر
 الذي نحياه ، ويحياه الأزهر ، تستطيع أن تعطينا القدرة على أن
 نقول شيئاً ، كنا نهم فيه بالمغلاة على الأقل ، لو أننا قلناه في
 حياة الإمام أو إثر وفاته . . .

هذا الشيء الذي نريد أن نقوله هو « الفراغ » الواضح الذي
 يلحظه كل من يتبع تاريخ الحياة المعاصرة أو يشترك فيها بنصيب
 قليل أو كثير . . .

فقد كان الإمام المراغي ، عملاقاً ضخماً ، وقوة كبيرة ،
 يحسب حسابها في كل تقدير وفي كل شأن . . . ولا يمكن
 تجاهلها أو التغاضي عنها بحال . . .

وفي حياة الأمم ، وفي حياة كل فكرة وهيئة ، يظهر الرجل
 الضخم ، مرة واحدة ، على الأكثر في كل جيل ، فإذا به يشغل
 الناس ، ويلفت الأنظار ، ويحدث الدوي العنيف . . . الذي
 يقف منه الأنصار والخصوم على السواء وقفة التقدير . . .

وهناك أناس يستطيعون إعلان كلمة الحق ، خالصة ،
منصفة . . . وهم قليلون . . . ، أما الكثرة الغالبة فقد يسوقها
الحسد والحقد ويحول بينها وبين ما تؤمن به في صميم نفسها . .
إنها تعجز ، لأنها تحس أن الضياء الحديد سيقتل
الخفافيش ، وسيقضى على الأقزام الذين اقتعدوا مكانهم في
غفلة الأحداث . . . ، وعند ما غابت الأسود . . . ، فهي
تحاول أن تحافظ على مركزها بإعلان هذه الحرب ، لا أكثر ،
وقلما تستطيع أن تمضي إلى نهاية الشوط .

. . . وهكذا قبول الإمام المراعى في كل مرحلة من مراحل
حياته الإصلاحية . . . هكذا قبول عند ما أراد إصلاح
التشريع ، وهكذا قبول عند ما وقف وقفته المشهودة في قضية
الميراث الكبرى . . . وهكذا قبول عندما اختير شيخاً للأزهر وهكذا
عندما حاول الإصلاح . . . ، وهكذا عندما أراد ترجمة القرآن . .
كان الرجعيون يقفون في وجهه ، يكتبون ويتحدثون ،
ويثرون الدنيا عليه باسم الدين الذى هم لا يفهمونه حق الفهم . .
الدين على الصورة العتيقة البالية التى أورثت الأمم تلك المتاعب
والآلام التى ما زال يقاسيها .

باسم الحمود والقصور والعجز عن فهم الإسلام نفسه ، وعن
مجاراة الحياة هؤلاء الذين ظن الغربيون أنهم حملة لواء الإسلام ،

وأن ما يعتقدونه هو الإسلام . .

غير أن المراغى كان يعرف سلفاً - أنه إنما يعرض نفسه
لسهام النقد الخارج ، وإن على من تصدر أعمال العظيمة ،
ومن يتصدى للإصلاح أن يحتمل ، وقد ظهرته قوة إيمانه بكونه
فاستفاد من خصومه ، ومضى في طريقه ، وعياً قواه . . . ، وأتاح
له الظروف المواتية أن يقضى تسع سنوات في منصبه الكبير كانت
في عمر الأزهر أعظم من سنواته التسعانة . . .

فقد ظل الأزهر ، على حفاظه على اللغة والدين ، وانياً ،
جامداً . . . أغرقه القرون الوسطى في ظلماتها ودياجيرها ،
فلم يستطع إنقاذها . . . وغرق هو . . . ، ومرت به المرات العتيفة
الضخمة ، التي مرت بالشرق في تاريخه الحديث ، فلم توقفه ،
حتى حمله بعض المؤرخين جريرة الاستعمار والاحتلال والتجمل .
وكان الأزهر قبل المراغى يوشك أن يفقد رأى العالم الغربي

والشرق على السواء في أمر الدين ، وفي أمر الإسلام . . .
وبعدت الشقة ، وانتعشت الحياة ، على أثر عودة رجال
البعثات المدنية من الخارج وإنشاء الجامعة المصرية . . . وظلت
الثقافة الغربية ، فقد ظن القوم أن الإسلام هو هذا الأزهر ،
وأن حملة رسالته هم هؤلاء العلماء . . .

ولكن ما كاد المراغى يعلى منبر الأزهر ويستقر فيه ،

حتى انطوت صفحة الأزهر القديم . . . وختمت حياته . . . ،
وبدا في الأزهر لون جديد من الحياة ، كان أشبه بالانقلاب
العاصف العنيف ، لولا أن ربانه كان لبقاً قوى العارضة ، خبيراً
بالناس ، قديراً على إحكام الخطط .

وفي سنوات قليلة ، وقبل أن يغادر المراغي دنيا الأزهر ،
تحقق الأمل ، وتمت المعجزة ، واكتمل البعث ، وشاهد الرجل
قطوف جهاده ممثلة في تلك النماذج الجديدة من العلماء الذين
درسوا في الكليات ، وثقفوا بأحدث ألوان الثقافة والفلسفة والعلم ،
واستطاعوا أن يخطبوا على المنابر في صورة جديدة خلاقة ،
تفتن السامعين ، وتصل إلى نفوس المثقفين فلا ترتد عنها ،
وانساب هذا النجاح الجديد في الحياة المصرية ، فاتصل
بأوساطها وصالوناتها ونواديها ومجتمعاتها ، فكان خير دعاية ،
ولقى أحسن القبول ، وأعجب أولئك المثقفون الذين أعجبهم
حضارة الغرب ، فضاقوا بالدين والأزهر ، أول الأمر ، ثم عادوا
فارتضوا تلك النماذج وأحسنوا رأيهم في الإسلام ، وبدأوا يعاودون
النظر في تلك الكنوز الضخمة الموروثة ، وذلك التراث الكبير
التي تركه لنا الآباء وكان هذا أعظم الكسب الذي أتيح للشرق
حين التقت فيه ثقافته القديمة على صورة مجددة مع ثقافة الغرب
الحديثة على صورة مقبولة وكان فضل ذلك راجعاً إلى المراغي

الذى أعاد للأزهر الحياة ، ونفخ فيه الروح ، وأتاح له أن يعيد للإسلام مكانته في نفوس الناس .

كان إصلاح الأزهر أمنية في نفوس أهل الغيرة ، من أبنائه ، وكان محمد عبده أول من رسم تلك الخطط للإصلاح . فلما قضى ١٩٠٦ أوشك الأزهر أن يستقيم إلى ذلك القدر الضئيل الذي حققه الرجل ، وبقيت المشكلة الكبرى قائمة ، تلك هي مشكلة الإسلام نفسه ، حقيقته ، ومعدنه ، وروحه . تلك الدعوة التي نادى بها ابن تيمية من قديم ، ثم جددتها محمد بن عبد الوهاب ثم حملها محمد عبده .

لقد انطوت هذه الدعوة ، ولف الأزهر لون من الصوفية غلب على أئمنته وأعلامه ، وكانت هذه الصوفية صنيعة ، مسرفة في الضيق ، في الوقت الذي بدأت الحياة الأوروبية تلف المجتمع في الشرق بروح فيها كثير من الجرأة والتحديد ، كان على الأزهر أن يوائم بينها وبين رسالته ، أو يقف منها موقف التوجيه حتى لا تطغى على روح الشرق ، أو تفسد قواعده الأصلية .

كان على الأزهر أن يخرج من عزلته إذ ذاك — ليقاوم الطغيان الجارف ، على أسلوبه وبوسائله ، وهي نشر العقيدة الصحيحة وتنقيتها من الخرافات والأوهام ، والعودة بالإسلام إلى

معينه الأول ومنابعه الصحيحة . .

ولكن شيئاً من ذلك لم يقع . . وظل الأزهر يمحى في الركب
لا يستطيع أن يرد الشر ، ولا أن يحفظ نفسه من المزالق .

وفجأة تحول الموقف ، وتغير مجرى الأمور ، عند ما أقبل
المراغى فقد التقط في مرعة أطراف الخيوط الواهية . . وبدأ
ينسج من جديد .

وكان جهاده في سبيل ما اضطلع به من عبء ، شاقاً ،
مريراً . . غير أنه صمد له . . ، صمد له بإيمانه القوى بفكرته ،
وثقته الكبرى بنفسه . . كانت طبيعته الصعيدية الأصلية ، تمدّه
بالحيوية والقوة ، وكانت خلاصات الماضي وآثار البيئة العلمية
القديمة ، وتعاليم الإمام ، وتلك الطاقة التي ظلت مكبوتة في
نفس الشيخ طوال شبابه ، من القوى العارمة التي أمدته بالحيوية
ومكنته من الصمود في سبيل استخلاص الأزهر . .

كان الأزهر كله ، في جانب ، وكان هو وحده في جانب .
ثم استطاع بعد قليل أن يكسب المعركة ، وأن يستخلص
النصر . . .

وقد أفاد المراغى ، كما قلنا في غير موضع بكل الأخطاء
والتعاب والمصاعب والأزمات التي وقع فيها من سبقوه في تنقية
العقيدة أو إصلاح الأزهر فأمكن أن يتفادها ، ومكنته طبيعته

القوية السمحة - معاً - أن يحقق هدفه في يسر . . وأن ينفذ إلى غرضه في حكمة ولباقة . . ، متفادياً كل الصخور والحنادل التي ارتطم بها من سبقوه في ميدان الإصلاح .

وكان الإمام المراغي خلال تلك المعركة الهائلة - يداري خصومه ، ويحاول أن يخضع الطرف عنهم بل يحاول أن يقر بهم إليه ، مشكراً ذاته ، في سبيل فكرته . . وكان في ذلك موضع العجب من خصومه وأنصاره على السواء . .

ولو أنه لم يفعل ذلك لأقام عقبات جديدة ، كان من شأنها أن تعوق العمل الضخم الذي أخذ نفسه به ، إن لم تفسده . وسرعان ما أعاد الثقة إلى الأزهر ، وأعاد الثقة إلى العقيدة الإسلامية ، فعرف الناس أن القصور في الشرق يرجع إلى المسلمين لا إلى الإسلام نفسه وأن جوهر الإسلام ، إن كان قد غشيت غاشية من الحكومات ، فإنه قد بدأ يتفص الغبار ، ويكشف عن الحقيقة النقية . .

واستطاع هذا الضياء الحديد الذي أدخل على حياة الأزهر والعقيدة معاً أن يشغل المستشرقين والمفكرين والعلماء في الشرق والغرب ، فتألق اسم المراغي في المحافل العلمية الدولية تألقاً منقطع النظير وليس شك أن المراغي خالق بذلك كله ، جدير بالمكانة التي أتيج له أن يصل إليها ، وأنه ليس من التزبد أن يذكر

المراغى حين يذكر محمد عبده بل أن يذكر على أنه هو الذى استطاع أن يصير تلك الخطوط التى رسمها محمد عبده على الورق ، حقائق واقعة ..

وإنه إذا كان لمحمد عبده فضل التفكير وإعداد الخطط فان للمراغى ، فضل التنفيذ ، وهو أشد خطراً وأبعد أثراً .
على أننا لا ننسى أن للمراغى بالرغم من رسمه طريق الإمام محمد عبده ، كان يحتفظ بذاتيته الخاصة ، على أساس أنه كان يؤمن بالفكرة إيمان أستاذه بها .

وسرعان ما ربط المراغى الأزهر الحديد بالقافلة العالمية — إن صح إطلاق مثل هذا التعبير — فارسل البعوث إلى أوروبا . ومثل الأزهر فى المؤتمرات المختلفة التى عقدت للإخاء الإنسانى والترابط العالمى . . ومن ثم تطلع إليه الشرق فى الحوادث والملامات وكان علماء الشرق وزعماءه ورجاله يلجأون إليه يسألونه الرأى والتوجيه .

* * *

يصف الإمام المراغى حالة الأزهر قبل عهده « إنهم استكانوا فى القرون الأخيرة إلى الراحة ، وظنوا أنه لا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورفضوا بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا توجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة ، وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة ، وطرق البحث

الحديث ، وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذين خصصوا أنفسهم له وأصبح الإسلام بلا حملة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين .

ثم يدافع عن الأزهر الجديد فيقول :
 « من الناس من يقولون : إن الأزهر القديم كان متمسكاً بدينه أكثر من الأزهر الجديد وأنا أقول لهؤلاء لا . فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم . كل المفاصل الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها إلا أنه يتطلب إزالتها فقد نظم البغاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه ، وأبيع الخمر في البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها ، ووجدت البدع في الموالد والأسواق والقبور ، وليس للأزهر الجديد دخل في وجودها .

« . . كل هذا وجد في عهد الأزهر القديم ولم يرفع صوته مطالباً لإزالة هذه المنكرات التي استقرت في البلاد ، ثم إن الأزهر الحديث لامس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها . »
 « . . لقد كان الأزهر يحضر منذ سنوات ففي سنة ١٩٢٨ أرادت وزارة الأوقاف أن تنشئ مدرسة للوعظ والإرشاد ووضعت في ميزانيتها مبلغاً من المال لإنشاء هذه المدرسة ، وفي ذلك التاريخ

كانت هناك مدرسة للغة العربية ومدرسة للقضاء الشرعى فلو أن مدرسة الوعظ كانت أنشئت فى وزارة الأوقاف لكان علماء الأزهر الآن بين جدران الأزهر كأنهم من الآثار القديمة التى يجيئ السائحون للنظر إليها ولا صلة لهم بالحياة العامة فى بلادهم . . . ولكن الأزهر الحديث استطاع أن يتصل بالعالم ، وأن ينفرد بشئون القضاء والوعظ والإرشاد .

« كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة فى عبارات الكتب ، وكان هذا هو كل شئ اشتهروا به فى العلم ، وكان يوجد منهم من يستطيع أن يحاضر فى موضوع عملى ، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم .

« ولكن الأزهر الحديث احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به دائماً وأضاف إلى ذلك أنه استطاع أن يحصل العلم تحصيلاً حقيقياً ، وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها » منذ ثلاثين سنة كنت مفتشاً فى وزارة الأوقاف وقد فكرنا

فى ذلك الوقت فى إيجاد خطب للمساجد أحسن من تلك الخطب المطبوعة التى كانت تتلى دائماً للناس ولا تتغير وأعلننا عن ذلك فجاءنا ٥٠٠ خطبة لم نستطع أن ننتقى منها واحدة نقول إنها صالحة .

« . . أما الآن فقد وجد فى الأزهر خطباء ووعاظ ومرشدون

بمكثهم أن يرتجلوا الخطب وأن يكتبوها .

* * *

ثم يتوجه الشيخ بعد هذا العرض التاريخي القوي إلى الأزهريين فيشرح لهم مهمتهم حيث يقول طيب الله ثراه .

« إن للناس فيكم أبيا الأزهريون آمالا في مصر وفي غير مصر ، والحياة الإسلامية تنتعش في هذا الوقت في الأمة المصرية وهذا الانتعاش يحتاج إلى عناية ورقابة وتدبير وتبصر .

« إن الذي يجب عليكم هو أن تفهموا دينكم حق الفهم ، وأن تعرضوه على الناس عرضاً صحيحاً ، وأن لا تنفوا فيه تلك الإضافات التي أضيفت إليه وكرهت بعض الناس فيه .

« جردوا دينكم من كل ما غشيه ، وخذلوه من التنايع الصحيحة ، وخذلوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة واتركوا بعد ذلك ما جد وما عرض .

* * *

وكانت إحدى الصحف قد سألت عن « الجهود » التي يبذلها

الأزهر لتوثيق صلة الأزهرين بالحياة العامة فقال :

إن خطط الدراسة في الأزهر ومناهجه ، جعلت الأزهرى

الحديث أكثر صلة بالناس وبالمعلمين على الطريق الملقى من الأزهر القديم .

وقد اتصل الأزهر بالأمة عن طريق الوعظ والإرشاد اتصالاً
 لا بأس به ، ومن المنتظر أن تجنى الأمة ثمار هذا الاتصال ،
 وثمار التعليم الجديد ، كل شيء في هذه الحياة لا تجنى ثمرته
 فوراً .»

* * *

وبعد فقد صنع المراغى الأزهر الحديد بيديه ويمكن
 أن يقال عنه إنه أنشأ كليات التخصص ، وأصلح المناهج ،
 وقضى على فوضى التدريس ، وشجع البعثات الأزهرية ، وجعل
 الأزهر جامعة ، ونقل الأزهر إلى خضم الحياة بعد أن كان
 يعيش في برج غير عاجى . !

الإمام المجتهد

تستطيع أن تعزو كل ما أصاب العالم الإسلامي في الشرق من نكبات واستعمار وتغريب ، إقفال باب الاجتهاد . . ، وإيثار التقليد والمضى فيه .

وأول من فتح باب الاجتهاد « محمد بن عبد الوهاب » . . ثم جاء « جمال الدين الأفغاني » فدعا إلى ذلك بصفة عملية ، ومضى في الطريق « الشيخ محمد عبده » .

.. ثم جاء الإمام « المراغي » ، فعمل في هذا الميدان على أوسع نطاق . . بصورة لفتت النظر .

* * *

تلقى الأستاذ المراغي في الأزهر ، كما تلقى الأزهريون ، وقاسى ما قاسوا من متاعب الشروح والحواشي والهوامش والتقارير ، ولم يقف الأمر به عند هذا الحد ، بل اعتمد على مجهوده الخاص فدرس كثيراً من الكتب ، ووسع اطلاعه ، وقرأ علوم الغربيين وثقافتهم إذ اختصر مدة الدراسة الأزهرية في عشر سنين .

وتولى القضاء في سن باكورة على غير ما جرت به العادة إذ
 ذاك وكان قد أشرب روح العدالة والإصرار على الحق من بيئته
 [الصعيدية فقد كانت دارهم في الصعيد - على حد تعبير محمد
 كرد علي - مفتوحة لحل مشكلات الناس وفض خصوماتهم
 وكان والده أستاذه الذي أورثه خير صفات العدل بين الناس .
 ومنذ عمل في القضاء ، درس الأحوال الشخصية ، وعمل
 تقريراً ضافياً فيها . صدر على أساسه القانون المصري الخاص بها ،
 وهو في هذا التقرير لم يتقيد بالمذاهب الأربع ولم يقف عندها ،
 وإصلاحه لقوانين الأحوال الشخصية من أبرز أعمال الاجتهاد
 التي وضعت حداً حاسماً للحياة الاجتماعية المتزلية . . وكان باب
 الطلاق من قبل مفتوحاً على مصراعيه . .

وكان هدف حياة المراغي ما رسمه له الشيخ محمد عبده عند
 ما سافر إلى السودان أول مرة ١٩٠٤ حيث قال له :

« العلم هو ما ينفعك وينفع الناس »

ومن ثم قامت فتاواه في العضلات على أساس تقريب
 الناس من الشرع والتوفيق بين الدين والمدنية فقد كان الرجل
 يفهم الدين فهماً جديداً مشرقاً ، وقد أهلته ثقافته الموفورة على
 الخروج من الحلقات الضيقة التي وقف إزاءها رجال الأزهر
 سنوات طوالاً وهو حنق المذهب ، ولكنه كالحجتهدين المصلحين

المجددين ، الذين سبقوه بأخذ من مذاهب الأخرى ، ويستنبط من سنة الرسول الكريم نفسه ، ما يناسب العصر والمصلحة .
ومثله في ذلك مثل أبي حنيفة ، الذي أخذ من الرسول ومن صحابته فلما جاء ذكر التابعين قال « إنما أنا مثلهم . . . »
ومضى المراغي في طريقه ففتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ولم يلبث أن طالب بإلغاء التعصب المذهبي .

وكان نداه هذا غاية في القوة ، وغاية في الجسارة . . . فلهذا به الدنيا كما هزها من قبل بإصلاح الأزهر ، وكما هزها من بعد بترجمة القرآن .

دعا الإمام المراغي إلى توحيد المذاهب وهاجم الأهواء التي جعلت الأمة شيعاً وأحزاباً في الأصول والفروع ، وفتح عنها هذا التفرق .

« يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق .

« ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب هذا الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهتدى إلى الحق في أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، فخلقت في الناس تعصباً

يسائر التعصب السياسى ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا تتركز إلا على ما يصوغه الخيال ، وما اقتراه أهلها وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال فى فروع الفقه إن ولد الشافعى كفاء لبنت الحنفى ، ومثل ما يرى فى المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة ، وعذابات العائى ، وطول اللحى ، حتى أن بعض الطوائف لا تستحى اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين ، وتسعى لإنشاء مساجد خاصة .

ومضى الإمام يرسم الخطة الصالحة لهذا الاتجاه الجديد فقال : « يجب أن يدرس الفقه دراسة حرة خالية من التعصب للمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة باصولها فى الأدلة ، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المتصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء » .
وفى هذا المعنى ما وجهه الأستاذ المراغى إلى العلماء فى إحدى خطبه .

« نصيحة أقدمها للعلماء — هي احترام حرية الرأي والتجريح من الاتهام بالزندقة والكفر . . . ولا أطالب بشيء يعد بدعة ، ولا أحدث في الدين حدثاً بهذه النصيحة فهي موافقة للقواعد التي وضعها سلف الأمة رضي الله عنهم وترونها ميسوسة واضحة في كتب الأصول وفي جميع كتب الإمام الغزالي »

* * *

وهكذا قضى الإمام المراغي صراحة على التقليد ، وأنقذ الأزهر والإسلام من تلك المحنة القاسية التي وصفت الشرق الإسلامي دهرأ ، والتي اعتبرها كثير من أهل الفكر مصدر الجمود والرجعية التي مكنت الغربيين من بلاد المسلمين . ولم يقف الشيخ عند هذه الصيحة المدوية ، وإنما أتبعها للعمل ، فخلصت قناواه من القيود التي وضعها أهل كل مذهب ومنح نفسه — وهو المجتهد الذي استوفى شروط الاجتهاد والإمامة — أن يأخذ من معين السنة نفسها . . . وأن يستقي ينابيع الشريعة ذاتها « ولم يغفل — كما يقول كرد علي — ما بعث به أصحاب المذاهب الجماعية من الآراء والأحكام وما تشدد فيما رخص فيه الشرع ، ودعا إلى العمل بجوهر الدين من دون ما تزمت ولا تضيق »

وكان لقبيلته الثانية هذه أثرها البعيد .

إنها هزت ذلك البناء المتداعى ، وصدعته . . البناء القديم ،
وفتحت عيون المستشرقين والمجددين ، على صورة جديدة من
الحياة في الإسلام .

ومضى الشيخ يثبت قواعد الدعوة الجديدة ويهيء لها وسائل
الاستقرار والثبات فكتب رضى الله عنه في رمضان عام ١٣٦٣ -
قبل العام الأخير من حياته الضخمة الزاخرة . . .

كتب فى الأهرام تحت عنوان « مرحلة من الحياة تفضت »
يقول « هناك أمور يجب أن يترفق الفقهاء فيها بالناس ،
وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الإسلام ،
ولا يوقعونهم فى الحرج ، وعندى أن من يفطر بعذر ويصرح بذلك
أطهر من يفطر بغير عذر ، أو بعذر ، ويظهر أمام الناس
بالتقوى يراى الناس ولا يخشى الله .

والترخص فى المرض ، أو الترخص للمشقة ، فى العمل ،
يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء
يبيّنون الحكم ، وهو أباح الفطر للمريض ، ومن لا يقدر على
الصوم ، أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه »
وهكذا استطاع المراغى أن يعلن رأيه فى صراحة وجلاء فى
أمور كان من المتعذر قبله الحديث فيها ، ولم يكن لغيره أن
يصل ما وصل إليه . بل إن المراغى كان أبعد من ذلك أثراً . .

وحديثه في لجنة الأحوال الشخصية عند بحث مسائل الهبة والوصية - وقد أوردناه في مكان آخر - يدل على مدى ما وصلت إليه ثقافة المراغى من عمق واستيعاب ، وهو دليل أكيد على إيمان الرجل بالاجتهاد والإصلاح والاستجابة للبيئة ومطالب الزمن .

كان المراغى يؤمن بأنه لا إصلاح للشرق ، إلا بالعودة إلى الدين ، كما أنه لا صلاح للإنسانية كلها إلا بالعودة إلى الروحية .

* * *

وفيما يتصل بهذا الاتجاه تلك المحادثات التي دارت في القاهرة (١١ فبراير ١٩٣٨) بين الإمام المراغى وسمو الأمير آغان خان وتناولت حالة المسلمين الدينية والاجتماعية في العالم . . وكانت ترمى إلى تكوين هيئة تعهد لبحث المسائل الدينية والاجتماعية الخاصة بالمسلمين على أن يكون من أهم مباحثها : أولاً : توكيد روابط الصداقة بين المسلمين في كافة أنحاء الأرض .

ثانياً : إيجاد تضامن بين الهيئات التعليمية في البلاد الإسلامية يكون من ورائه نشر التعليم على وجه العموم ، ونشر الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص .

ثالثاً : العمل على تبسيط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه .

رابعاً : محاولة التوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم
وفرقهم .

وكذلك كان المراغى يؤمن بالإصلاح وتوحيد المذاهب
ويدعو إلى الاجتهاد ويحاول إزالة الفوارق والخلافات بين المسلمين
حتى يأخذ الدين صفة العالمية الخالصة .

عالمية القرآن

... هز المراغى الأزهر ، والعالم الإسلامى ، والشرق
بأحداث ثلاثة :

* مذكرته الخالدة فى الإصلاح

* فتح باب الاجتهاد فى الفقه

* حوار ترجمة القرآن

وفى كل واحدة من الأعمال الثلاثة الضخمة ، كان
« المراغى » هو الرجل الذى يعاديه الألو ف ويحاربه الألو ف ،
وكان هو الفارس المحلى الذى يقف فى وجه العدوان . . مرفوع
الهامة موفور الكرامة .

وليس فى أعمال المراغى أبلغ من (ترجمة القرآن) عملاً . .
خالداً ، سيذكره له التاريخ على عظمة أعماله الأخرى
كان الشيخ المراغى يحب القرآن حباً عميقاً ، وكان يترجم
عن هذا الحب على طريقة الأكفاء . . ، فقد كان يصرف
طاقة حبه للقرآن ، إلى إعلانه فى الناس وإذاعته فى العالمين ،
تحقيقاً لرسالة الإسلام .

وكان الإمام يعلم أن المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية
 يجهدون في فهم القرآن ، ولا يصلون إلا بالفاتحة ... وحدها ،
 وكان حفيظاً بأن يتيح لهم فرصة إطالة الصلاة والمناجاة .
 ولقد أعلن الرجل رأيه مدوياً ، فقبول بعاصفة من المعارضة
 الضخمة ، واتهم بأنه لم يرد الإسلام بهذه الدعوة ، ولكن
 الأحداث والوقائع كذبت هؤلاء وأثبتت أنهم هم الذين لم يريدوا
 وجه الله . .

كان المراغى يؤمن بعلمية القرآن ، وكان يرى من الضروري
 إبلاغه إلى الناس على الوجه الذى يمكن تيسره لهم ، ولم يكن من
 المستطاع أن نعلمهم العربية حتى يقرأوه بها ، فكان لا بد من
 أن يعلن لهم بلغاتهم .
 وكان جريئاً على سنته في رفع شأن الإسلام ، يريد أن
 يضع أمام المستشرقين والمفكرين والباحثين في الغرب صورة
 صادقة كاملة ، أو قريبة من الكمال من هذا الكتاب ، حتى
 يلتفتوا إلى ما حوى من دراسات وتشريعات . . وكان يؤمن أن
 من شأن هذه الدراسة أن ترفع قدر الإسلام في نظرهم ، وأن
 تعدل آرائهم في الشرق ، وتضع الأمور في نصابها بالنسبة للدين .
 وكان المراغى — إلى هذا — يؤمن بأنه لا صلاح لهذه
 الإنسانية إلا بهذا القرآن ، وإن مشاكل العالم كلها ، تعجدها

فيه . . وأن الدنيا المتردية في المذابح ، والمتاعب ، والأزمات ،
تستطيع أن تواجه النور عند ما توضع يدها بين صورة واضحة
من القرآن .

بدأ فضيلته رضى الله عنه هذا العمل الجليل سنة ١٩٣٢ ،
وأخذت مجلة الأزهر تنشر كل شهر فصولاً ضافية مترجمة من
الآيات الكريمة . . بينما أخذت مختلف الصحف تنشر فصولاً
في نقد هذا العمل ، فقد ظن بعض الجامدين إنما أريد به إضاعة
إعجاز القرآن . . ، وثار لذلك جدل طويل اشترك فيه كثير من
العلماء ، غير أن الفتوى التي وقعها ١٤ عضواً من هيئة كبار
العلماء بالموافقة على جواز ترجمة معاني القرآن قطعت على
الرجعيين خط الرجعة ، ووضعهم أمام الأمر الواقع ، وهكذا
انتصر الأزهر الجديد في هذه المعركة الثالثة . .

وكان المفروض أن تجرى ترجمة القرآن إلى اللغات
الإنجليزية والفرنسية والألمانية وعارض الشيخ الطواهرى ، هذا
المشروع ، جرياً على اتجاهه الدينى المشبع بالروح الصوفى وقد
أعلن الإمام المراغى بأنه إنما يريد بهذه الترجمة الرسمية إلى مناهضة
الترجمات الغبر الرسمية ووافق مجلس الوزراء على المشروع واعتمد
له ٢٠ ألفاً من الجنيهات .

وقد أذاع الإمام المراغى بحثاً يحدد به وجهة نظره في هذا الموضوع استشهد فيه بفتوى الإمام أبي إسحق الشاطبي الذي ضمنه كتابه «المواقعات» حيث قال : إن أهل الإسلام أجمعوا على جوار تفسيره للعامة ، ومضى يقول « وهذا إجماع منهم على جوار ترجمته . . . ، وبيان هذا أن التفسير قد يطول وقد يقصر ، وهو تعبير بألفاظ تبين معاني القرآن وأغراضه ، وليست هي ألفاظ القرآن ، وقد يكون المفسر مخطئاً في بيان معاني المفردات ، وقد يكون مخطئاً في بيان المعاني التي يدل عليها التركيب . . . ، ولا يمكن أن يدعى العصمة لمفسر أياً كان ، ومع هذا فقد احتمل جواز لهذا الخطأ . . . فيجب أن يحتمل جواز الخطأ في الترجمة ، كما احتمل في التفسير ، إذ لا فرق بين المفسر والمترجم إلا أن هذا يضع في بيانه معنى اللفظ ، لفظاً عربياً ، وذاك يضع لفظاً أعجمياً .

ثم يمضى فضيلة الأستاذ فيقول :

« . . . أما إمكان الترجمة فهو أمر بين يدركه من لا يعرف

اللغة العربية .

وقد تستطيع اللغة المنقول إليها أن تؤدي بعض الخصائص في اللغة العربية وتنهض لأداء الدلالات التابعة ، يعرف هذا من عانى نقل العلوم والفنون من لغة إلى أخرى ، ومن يدرك فقه اللغات

وخواص استعمالها .

« .. ولكن من المحال أن تنهض لغة من اللغات لأداء كل ما في اللغة العربية من خصائص فقد يكون المفرد في لغة العرب له فوق دلالاته الوصفية ، دلالة في حادثة خاصة

« .. كذلك لغة العرب لا تنهض لأداء الدلالات التابعة

كلها في أية لغة من اللغات الراقية ، وكلما كانت القطعة العربية التي يراد نقلها أكثر في حمل الدلالات التابعة من غيرها ، كان نقل تلك الدلالات أكثر تفسيراً ، وهكذا يزيد الأمر صعوبة حتى يصل إلى الاستحالة المطلقة في نقل الآيات المعجزة في القرآن الكريم ، فإن نقل الخصائص التي بها كان الإعجاز يقتضى أن الترجمة تحمل خصائص الإعجاز أيضاً في اللغة المنقول إليها . . . والإعجاز في أى لغة من اللغات ليس في استطاعة البشر .

« وإذا كان الأمر هكذا كان ادعاء أن القرآن الكريم كله لا يمكن ترجمته لأنه معجز ادعاء خاطئاً ، بل الحق أن يقال إنه يمكن ترجمته كل من ناحية الدلالات الأصلية ، وتستحيل ترجمته من ناحية الدلالات التابعة »

وهكذا يخلص الإمام إلى غاية بعد هذا الإقناع الذي يدل على سعة الأفق ، وقوة العارضة ، وعظم القدرة على التحليل والبحث . . .

ثم يواجه خصومه ، ومعارضيه في قوة فيقول .

« نحن نعتز بأن الترجمة الحرفية متعذرة ، في كل القرآن
وممكنة في آيات كثيرة ، أوفى أكثر آيات القرآن ، ونعتز بأن
الترجمة المعنوية قد يتغير بها المعنى المراد لله سبحانه وتعالى ، لأنها
موقوفة على الفهم أولاً ، وبعد الفهم ينقل المعنى إلى اللغة الأخرى
» . . . ولكن الحنفية في هذا أجازوا الترجمة الحرفية فيما يمكن
أن يترجم حرفياً ، ولم يجيزوا الصلاة بغيرها ، وأجازوا الترجمة
المعنوية ، ولكنهم لم يجيزوا الصلاة بها ، ولو أنهم كانوا يمنعون
الترجمة المعنوية لقالوا إنها لا تجوز الصلاة بها ، لأنها غير
جائزة ، ولكنهم قالوا :

لا تجوز الصلاة بها لأنه لا يتعين أنها معنى كلام الله
ثم يتحدث الإمام عن واجبنا تجاه الأمم الإسلامية
الأعجمية فيقول : « أما تعريب الأمم الإسلامية الأعجمية ،
فهو أمل حلو ، ولكن إلى أن يتحقق هذا الأمل ، ماذا تفعل
الأمم الأعجمية وهل الأفضل لها أن تبقى كما هي قاعة بقراءة
الفاتحة في الصلاة ثم هي بعد هذا لا تستطيع النظر في ألفاظ
القرآن العربية ولا النظر في معانيه مترجمة ، أو الأفضل أن ننقل
إليها معاني القرآن ، وينقل ما يمكن نقله بالترجمة الحرفية ،
لتستطيع إطالة الصلاة والمناجاة بقراءة الترجمة الحرفية وتستطيع

النظر والفهم والتدبر في هذه المعاني .
 « ثم هل الأفضل أن يبقى القرآن محبوباً عن الأمم الراقية
 المسيحية ، أم الأفضل أن ينقل إليها نقلاً صحيحاً ليسحث العلماء
 نظمهم الاجتماعية وما فيه من توحيد وتبريز ومكارم أخلاق »
 ثم يصل الإمام إلى الحقيقة الموجعة ، التي أحسها
 وعمل في سبيل تجنبها حيث يقول :

« وهذه المسألة تدل على ظاهرة غريبة في الفقه ، فكلما
 ذهبت بعيداً تطلب الأولين من الفقهاء وأقوالهم تجد روح
 التسامح بادياً في الصور ، وروح النظر في المعاني وثاباً طامحاً ،
 وكلما دنوت من عصرنا الذي نعيش فيه وجدت الأمر على
 العكس » .

وصدق الإمام المراغي . . وأبان عن حجج مضيئة كالشمس
 عن جواز ترجمة معاني القرآن ، لا يجادل فيها إلا مغرض ، أو
 رجعي ، أو من لا يريد وجه الله وفي نفس الوقت الذي كان
 هذا الرجل يتافع عن القرآن مخلصاً صادقاً في سبيل إعلانه
 وإداعته ، ويتم بالتفريط فيه ، كان يعارض اتجاهاً ظهر
 إذ ذاك في الربط بين ظواهر العلم وبين القرآن .

وقد وقف المراغي يقاوم هذا الاتجاه ، وليس أدل من هذا
 غيرة منه على كتاب الله ، استمع إليه « كلما حدثت في العالم

فكرة طريقة اجتهدوا في تلمسها من القرآن ، و فرجو إن استطاعوا
 الاهتداء إلى إشارة بعيدة إليها . . يفعلون هذا في جميع النظريات
 المرتبطة بالكون وأسراره ، وقواعد الاجتماع والسياسة ، « . . ولكن
 من حقهم أن يفهموا أن المعارف البشرية غير مستقرة ، وأنها
 تتغير وتتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها ، أو تناقضها ،
 وأنه ليس من الحكمة أن تربط هذه المعارف غير القارة بكتاب
 الله الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . .
 » . . ومن الخير أن ندع كتاب الله يقرر لنا أحكام التشريع
 الوثنية ويحتثها من أصولها ، ويرفع العقل البشرى إلى المستوى
 اللائق به ، ويأخذ بيد الإنسان إلى المقام الأسمى اللائق ، بخلافته
 في الأرض ، ويبين لنا العبرة والعظة بأحوال الماضين ، ويغرس
 في نفوسنا الأخلاق الفاضلة ويفتح أمامنا أبواب العلم والهداية . .
 » نعم ، إن في كتاب الله آيات لا تفهم حق الفهم ، إلا
 بمعارف فلكية وطبيعية ، ولكن تلك لم تسق لتقرير تلك المعارف ،
 وإنما نزلت للهداية والعبرة ، فليس القرآن الكريم ، كتاب
 حساب وفلك وطبيعة ، وإنما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة
 الإنسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض »
 وفي هذه العبارات التي اخترناها من كلام « المراغى » تبدو
 غيرته القوية ونفاحه البليغ عن كتاب الله .

المراغى السياسى

لم تنفصل « السياسة » عن « الدين » فى تاريخ الإسلام ، إلا فى عهود الضعف والمذلة . . . ولذلك كان حتماً أن يكون « المراغى » سياسياً .

والسياسة التى نعنيها هنا هى التوجيه الواسع للحياة العامة . . . وبهذا المعنى اشترك المراغى فى السياسة ، وقد جاء على نفس الصورة التى كان عليه الأئمة فى العصور السالفة . كان المراغى فى هذا الدور أشبه بالمعز بن عبد السلام ، والنووى ، وابن تيمية . . . وغيرهم من العلماء الذين كانوا يقدمون رأى الصالح لأولى الأمر فى وقت الحاجة إليه . . . يقول الأستاذ مرتضى المراغى باشا رداً على ما تردد من أن الإمام المراغى يشغل بالسياسة « إن الإسلام دين وسياسة ، ولا رهبانية فى الإسلام ، وأن عمله فى السياسة ليس عملاً حزبياً ، بل عملاً عاماً بالمعنى الذى تؤديه كلمة السياسة عند رجال الاجتماع من تدبير شئون لأمة وشئون الدين .

وحدثني أبو الوفا المراغي قال « اشتغل الأستاذ المراغي بالسياسة عملاً بدينه ، فالإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا ، وإنما هو نظام شامل لهما جامع بينهما .

اشتغل بالسياسة من وراء وراء ، حرصاً على كرامة منصب مشيخة الأزهر بل مشيخة الإسلام ، كما كان يعتبرها البعض - وهو اعتبار جدير بالنظر .

وقد استهل الإمام المراغي حياته العملية بعمل سياسي ، وهو موقفه من ثورة ١٩١٩ كما روينا ... فلما راجعه الإنجليز قال لهم « إني (١) فعلت ذلك براً بوطني وتوجيهاً لشعور المصريين بالسودان وجهة الخير والمصلحة واتقيت بذلك شروراً كانت لابد واقعة لو لم أنح هو النحو . . وكان ما فعلت هو المنفس السلمي الوحيد » .

ويقول الأستاذ محمود السيد « كان الشيخ المراغي يعتقد أن رجل الدين يتعين عليه أن يشتغل بالسياسة ، وكثيراً ما برر رأيه في أن الإسلام دين ودولة . . فقد كان يرى ضرورة اشتغال رجل الدين بالسياسة ، ولكن لاعلى

(١) من مذكرات الأستاذ أبو الوفا المراغي .

أنها حزبية ولا طائفية ، بل للإرشاد إلى ما فيه الخير ولرد المخطيء عن خطئه ، وإعلان تقصير المقصر ، ولو كان من الرجال المسؤولين الذين يتهيب الناس تصرفاتهم .
وقد كان على هذا الأساس يبدى الجرأة في إعلان الرأى من غير أن يثير عليه الخصومات وهدفه : أن ينصح ويتقى الله ، وينقد ولا يخشى إلا الله .

* * *

ومن المواقف السياسية المعروفة للإمام المراغى ، مهمته التى سافر من أجلها إلى الحجاز ، وكانت لأمر تتعلق بالخلافة ، ولتسوية الخلاف الذى كان قائماً إذ ذاك بين ملكين مسلمين . . كانا يتنازعا الحجاز . . وقد وفق فى مهمته ، وليس فى إمكاننا الآن الحديث بالتفصيل عن هذه السفارة فى الوقت الحاضر .

* * *

ومن أشهر مواقفه السياسية ، خطبته أثناء الحرب الأخيرة فى مسجد الرفاعى ، التى أعلن فيها موقف مصر فيها وأنها لا مصلحة لها من الاشتراك فى الحرب ، إذ لاناقة فيها ولا جمل .

» ولقد (١) أحدثت هذه الخطبة ضجة هائلة ، وقامت لها الحكومة المصرية وقعدت ، واهترت لها بريطانيا ، هزاً عنيفاً ، وطلبت إلى الحكومة المصرية بياناً عن هذه الفكرة ، واتصل به رئيس الوزراء وخاطبه في لهجة تفوح منها رائحة التهديد . . فثارت ثائثرته وقال له .

» مثلك يهدد شيخ الأزهر . . وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة ، ولو شئت لرقيت منبر مسجد الحسين ، وأثرت عليك الرأي العام ، ولو فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب » .

* * *

» (٢) وقد تعرض الإمام المراغى سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٥ لحملة قوية من بعض الأحزاب تمثلت في مقالات طائشة من بعض الصحف حررتها أقلام كبار الأدباء منهم ، بقصد إحراجه وحمله على الاستقالة ، وقد استقال فعلاً واعتكف في منزله تسعة شهور ، ثم ردت إليه ، وعاد ثانياً إلى الأزهر وقد استعدوا عليه السفير البريطاني ، الذى جرى فى تيارهم مخالفاً بذلك التقاليد الإنجليزية . . وقد ظل الشيخ يدافع

(١) ، (٢) من مذكرات الأستاذ أبو الوفا المراغى .

عن نفسه وقد تالبت عليه قوة الحكومة والإنجليز حتى هدأت العاصفة وانتصر الشيخ . . . » .

* * * *

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ، أن الأستاذ الإمام كان غاية في اللباقة والقوة - معاً - عندما كانت الأمور تتصل بالبريطانيين .

وكان الإنجليز يفهمون منه هذا ، وقد كتب حاكم السودان - أيام كان الإمام بها - إلى وزارة الخارجية يقول : « إن الشيخ المراغى يعد من ذهاة العالم » وكان الرجل على قدر كبير من الإدراك لعقلية الإنجليز ومعرفة الجوانب التي يمكن أن تؤتى منها ، وقد كان جورج لويد يحترم الشيخ احتراماً كبيراً وقد حدث فقال : أن الرجل العظيم الوحيد في مصر هو الشيخ المراغى ، إنه لا يعرف الإنجليزية جيداً ، وأنا لا أعرف العربية جيداً ، ومع ذلك فعلى كثرة ما تحدثنا معاً ، لم يفت أى واحد منا ، أى شيء من غرض الآخر .

* * *

ومما يروى أن كان أحد السفراء البريطانيين تحدث إليه . . ذات مرة وانتقل الحديث فجأة إلى الصيد والسمك .. قال السفير :

- إن السمكة تفسد من رأسها .
- الحق أن السمكة تفسد من بطنها .
- هذا غير صحيح ، وأنا صياد ، أعرف السمك معرفة تامة فأجابه الشيخ . . . إنك قد تحسن الصيد في نهر التيمس ولكنك لا تحسن الصيد في نهر النيل .

* * *

وفيما يتصل بالحديث عن صلة الأستاذ المراغى بالسياسة ما رواه لى الأستاذ عبد الحميد رشوان قال :

فى سنة ١٩١٤ كان الأتراك يحاربون الإنجليز ، وكان الإنجليز فى خوف شديد من الشعور الدينى فى البلاد . . ، ولذلك لجأوا إلى وسائلهم المعروفة ، وهى إغراء الزعماء الدينيين فى العالم الإسلامى بإصدار فتاوى فى تفسير معنى الحديث « الخلافة فى قریش » . . . من شأن هذه الفتوى ، أن تؤيد الرأى بأن الخلافة التركىة لا ينطبق عليها هذا الحديث .. وقد أصدر الإمام المراغى فتواه — وقد ضمنها أنه .. ليس مفتى الخلافة فى قریش أن يكون الخليفة قرشياً ، ولكن الضرورى أن يكون الخليفة مسلماً ذا عصبية قوية تستطيع أن تذود عن بلاد المسلمين ، مهما كانت جنسيته ، فمثل تركيا هى أقوى دول الإسلام ، وينطبق عليها هذا

الحديث ... »

وهكذا لم يصل الإنجليز منه إلى ما يريدون .

* * *

وكان الشيخ المراغي ناصحاً أميناً على قاعدة الحديث الشريف « الدين النصيحة ، قيل لمن يارسول الله قال لله ولرسوله وللمؤمنين » ...

ورغم ما هو معروف من صداقته لمحمد محمود باشا .. التي ترجع إلى السنن والجيل وإلى الرابطة الصعيدية التي كانت تجمعهما .. فلم يمنع ذلك الشيخ المراغي عندما سئل من بعض الجهات .. هل من الخير أن يؤلف الوزارة .. قال إن ذلك ليس من الخير وليس محمد محمود وحزبه موضع تقدير من الشعب .. وأعتقد أن الوفد سينال الأغلبية لو أجريت انتخابات ...

فلما قيل له — نعرف أنك أعز صديق لمحمد محمود . فأجاب في وقاره المعهود : إن شيخ الإسلام لا يكذب . هذا مثل من نصائحه ، وتوجيهاته .. الصراحة والوضوح ، والتجرد ، هي كلمة الحق يقولها ولا يبالى .

* * *

وقد حدث أن ذهب الخديو عباس لتأدية الصلاة في

أحد المساجد — وكان الأستاذ المراغى إذ ذاك مفتشاً
للمساجد . . فوجد إماماً أعمى ، فغضب ، وقال له : كيف
يكون إمام المسجد الذى أصلى فيه أعمى .

وأجاب المراغى : إن الإسلام لا يشترط أن يكون
الإمام أعمى أو بصيراً ، وخرج الخديو غاضباً .

فلما وافق الإنجليز على تعيينه قاضياً لقضاة السودان ،
ذهب حسين رشدى باشا يعرض اسمه على الخديو فقال
له : أنا لا أحب هذا الرجل ، وقص قصة الفقيه الأعمى .
فأجابه رشدى باشا : هذا رجل يشترط أن يكون تعيينه
فى هذا المنصب بمرسوم مصرى . . إنه يريد أن يحافظ على
حقوق البلاد .

وهنا قال الخديو : أما دام الأمر كذلك فأنا أوقع المرسوم »

* * *

« وكان^(١) المراغى حريصاً كل الحرص على جلال
المنصب يصنع تصرفاته كلها بهذا الاعتبار ، ويهدف إلى
هذا الغاية ، وما كان يغضب لشيء غضبه إذ يمس هذا
المنصب » .

وما يروى فى هذا المعنى ، أنه دعى إلى الاحتفال

(١) من مذكرات الشيخ أبو الوفا المراغى .

بذكري وفاة سياسي كبير ، وكانت الأحداث العالمية إذ
ذاك يقضى بالمبالغة في تكريمه ، ولكنه اعتذر عن الحضور
في لباقة الرجل الديني والرجل السياسي ، وجاء في الاعتذار
أنه يخشى أن يسيء الرأي العام تأويل حضوره إلى هذه الحفلة.
وقصة أخرى ، مجملها أن بطريك الروس كان قد دعى
إلى زيارة مصر ، وقد استقبله الإمام المراغي في مكتبه
بالأزهر ، غير أن شخصية مصرية كبيرة طلبت إلى الشيخ
أن يرافقه في زيارة الأزهر مبالغة في مجاملته ، فاعتذر الشيخ
في صراحة : وقال إن ما قمت به يكفي في مجاملته وتكريمه ..

* * *

ومجمل القول في هذا الموضوع ، إن المراغي كان
« سياسياً » ممتازاً يفهم السياسة بمعناها الواسع ، ويجعلها
النصيحة لأولى الأمر ، والميزان المعتدل في جميع الأمور .
وموقفه من الإنجليز فيما روى عنه يدل على مدى ما كان
هذا الرجل يحب وطنه ويعمل على مقاومة الطغيان .. وخير
مانعته به هذا الفصل هذه العبارات للاستاذ فكري أباطه باشا
« كان الإمام المراغي شخصية فذة ممتازة ، قوية ، صمدت
أمام كل سلطة في البلد ، حين شاء الإباء الشخصي أن
يصير ، وقاومت حين شاءت الكرامة الشخصية أن تقاوم .

.. وارتطم الفقيد ببعض الأزمات العليا ودس له الدساسون لدى الملك العظيم فؤاد ، فأثر أن يتزوى ، وأن يحتجب ، حتى بدت وجهات نظر متألقة ، بقصد المصلحة والخير للأزهر والأزهريين ، فعاد السيف إلى قرابة ، وترجع على كرسي المشيخة ، واستطاع أن يحرر الأزهر تحريراً تاماً من سيطرة القصور والدواوين ، ودعمه باستقلال جامعي لم يوفق إليه شيخ سابق .

وكم اصطدم مع حكومات قوية ، كحكومة الوفد ، في أكثر من عهد ، ولكن ظلت مكانته في نفوس الحاكمين ، مكانة الإجلال والاحترام فلم تخذشها الخصومة ، ولم يؤثر عليها كدر العلاقات

وقيل الكثير عن الشيخ من أدوار سياسية لعبها في أكثر من ظرف وأكثر من جيل ، ولست أعلم بالتفصيل ، كيف كان الفقيد ، ذا صلة وثيقة بالسياسة العليا ، وإنما الذي أعلمه أن أصدقاءه جميعاً من زمن ، كانوا من زعماء الأحزاب ، وأقطاب السياسة في البلد وكانت صلته الوثيقة بالقصر الملكي ترتكز على ثقة متناهية وحب ، ولعل تلك الصداقة وتلك الصلة بالقصر وبالسياسة من زعماء وأقطاب هي التي جعلت كلمة الشيخ وأثرابه ، وبعد نظرة على مقربة من حاجة المسؤولين

إلى الرأي والفتوى ، فاستعانوا بها - حيناً بعد حين ، وأعلم
جيداً أنه كان حريصاً وشديداً على أن يضع بينه وبين السياسة
جداً فلم يكن يحبها لأنه لم يكن يكبر من وسائلها وأساليبها .

الاعتزاز بالكرامة مفتاح شخصية المراغى

.. لم يكن ممكناً أن تتاح هذه القدرة لإنسان عادى ،
ولم يكن من المعقول أن يكون الرجل الذى غير الأزهر وأنشأه
خلقاً آخر ، وفتح باب الاجتهاد .. ودعا إلى ترجمة القرآن
ووقف أمام السهام المصوبة ، سهام العلماء الذين كانوا
يكتبون فى الصحف ويخطبون فى المنتديات ومعهم اللسان
والبيان وقوة العارضة والأتباع .. إنساناً من الأقداد القلائل
الذين يظهرون فى كل جيل مرة .

.. فما هو مفتاح شخصية ، هذه الشخصية الجبارة ..
التي تركت أبعد الأثر فى محيطها ومحيط الإسلام والشرق
جميعاً ..

ثم ما هى تلك الصفة التي يمكن أن نضيفها على « الإمام
المراغى » أهى البطولة أم العظمة أم الزعامة ..

* * *

لا شك أن إمامنا كان بطلاً ، وإن كان الفلاسفة وكتاب
التراجم ، قد اختلفوا فى وصف البطولة ، فقد كان المراغى

بطلا على أى صورة من هذه الصور ، أو وصف من هذه الأوصاف .

فإن قيل إن البطولة هي أن يكون البطل مقتحماً لا يخاف ، ولا يهاب ، ولا يخشى فقد كان المراعى كذلك . وإن كانت البطولة هي الحكمة والعقل ، التي تقدم متى يكون الإقدام عزمًا وتحجماً متى يكون الإحجام خزمًا فقد كان كذلك . . .

وإن كان كان البطل هو من يغلب منازليه ويقوى على خصومه بالحجة والبرهان فقد كان المراعى هو ذاك .

وإذا قيل إن البطل هو من يقوى على أهواء النفس ويرد غرائزها فهو لا يعدو نطاق هذا القول .

فهو البطل على أى أوضاع البطولة التي قررها الباحثون ، وهو البطل في معناها الشامل ، وفي مظاهرها المتعددة . . . سواء أكانت قوة العارضة في الإقناع ، أو سعة الباع في الإصلاح .

وهو البطل إن كانت البطولة رسم المناهج أو متغذها ، أو الفلذة على النفس والسيطرة عليها .

وإن كانت البطولة هي تغيير مجرى التاريخ ، وتحويل تيار الحوادث فمن ذا الذي ينكر أن المراعى غير صفحة تاريخ

الأزهر ، وحول مجرى الأحداث في الفكر الإسلامي وحمل
المستشرقين والمفكرين في الشرق والغرب على إعادة النظر فيما
قرروه بشأن الشرق والمسلمين .

وإن كانت البطولة هي إنشاء مدرسة جديدة في الرأي
تثبّت الأيام حاجة الناس إليها ، فقد فعل المراغي .

وإن كانت البطولة هي أن تفتح للناس باباً موصداً
يلآئم بين حاجاتهم وبين قواعد الدين ، ويوافق بين سعادتهم
وبين قوانين الحياة فقد فتح المراغي للناس باب الاجتهاد . .
وذلك لهم الصعاب في سبيل سعادتهم . . وإذا كان البطل هو
الرجل الذي يضعه الزمن في المكان المناسب في الوقت المناسب
فقد كان كذلك المراغي . .

* * *

كان العلماء من قبله ، لا يعملون ، كأنما قد حيل بينهم
وبين العمل . . قدر نافذ أو غيب مكتوب ، وكان يحرفهم
التيار فيمضون فيه ، وكانوا لا يجهرون بكلمة الحق ، أو
كانت كلمة الحق نفسها لا تجد سبيلها إلى ألسنتهم أو
نفوسهم ، حتى جاء إمامنا فأعاد مجد العلماء الذي كاد أن
يندثر . . أعاد مجد العلماء الذين كانوا يقرعون آذان أصحاب
السلطان بكلمة الحق ، أعاد ذكرى العز عتة السلام ،

والدردير ، والنوى ..

قال كلمته التى هزت الدنيا يوم أعلنت الحرب العالمية الثانية :

هذه حرب لاناقة لنا فيها ولا حمل ..

واضطربت بريطانيا وارتجف الاستعمار ، ووقف الشرق

كله ينظر إلى الرجل الأعزل الذى لم يخش إلا الله ، والذى

أعاد سيرة الأسلاف ..

كان إمامنا بطلا ، إذا كانت البطولة هى نقل الجامع

الأزهر إلى الجامعة الأزهرية وكان بطلا ، لأنه أشقى نفسه

فى سبيل هذه الأمة الأزهرية راغباً فى رفع مستواها ..

وأشقى نفسه فى سبيل الأمة الكبرى لأنه أراد أن يخرج

لها طائفة من العلماء المستنيرين الخالصين المجريدين لكلمة

الحق .. كان الأزهر يتردى ، كاد يوشك أن يصل إليه

العطب .. ، وكان الخطر قد دهم بالفعل هذا المنار القوى

السامق ، لولا جاءت يد « المراغى » فاستنقذته وكان ذلك

العمل الضخم فى حاجة إلى جهود جبارة ، ولكن المراغى

كان أكثر من رجل ، كان أمة .. ، وكان يثق بنفسه

وعزيمته وقوته ، فاندفع يحقق هدفه دون أن يخشى شيئاً ،

فلما رأى أن الأمور لا تسير وفق ما يرجو .. تنحى واعتصم

بعرينه .

.. خمس سنوات ، تبين فيها للأزهر ، أن خلاصه على يد رجل واحد ، فلا بد أن يعود .

.. وعاد الرجل منقضاً كالصاعقة ، لا يرمم البناء المنهار ، وإنما لينشئ بناء جديداً ، ولم يكن الطريق [معبداً] .. ولم تكن الريح رخاء .. ولم يكن البحر هادئاً .. كانت هناك الأشواك ، والعواصف ، والصخور .. ولكن البطولة منحة ربانية نادرة ، تمنح ولا تكتسب .. وهى لا تعبأ بشيء فى سبيل الحق ..

إنها فيض يرسله الحق بين آن وآن ، لينير به طريقها ، ويردها عن غيها ، ويحقق به الخير لها .

إنها كثر مخبوء ، يضعه الله فيمن يشاء .. « الله أعلم حيث يجعل رسالته » لقد ظلت البطولة فى صدر المراغى ، وفى نفسه ، وفى أعصابه .. حتى جاء اليوم ، وأقبلت اللحظة الحاسمة ، الفاصلة ، التى تأذنت لها بالبروز والظهور والإشراق . وبها .. ، تحققت الآمال التى ظلت تتردد كلمات فى الأفواه أو على الورق ..

وبهذه البطولة أصبحت الآمال القائمة فى النفوس كالأشباح ، حقائق واقعة فى محيط الحياة ..

فإذا قيل إن البطولة هى التضحية ، فحق كان المراغى

مفطوراً على أن يفندى أمله بكل شيء .

لقد قهر المراغى كل عقبه ، وتغلب على كل صعب .
 وصدق « إمرسون » إذ يقول أن البطولة كل البطولة في أن
 تحرر نفسك من مغريات المجد الناقص ومفاتن النجاح المبثور .
 وما أرى هذا القول إلا منطبقاً على عمل المراغى ، الذى
 بلغ وذروة الكمال .

* * *

أم أن الصفة التى تضيفها على المراغى هي « العظمة » .
 يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة
 لا تجد فيها الراحلة » .

ومثل أئمة الأزهر ومثل المراغى ، تطابق هذا الحديث .
 والعظمة ، هي أن ترى الرجل فتحس بأشعاعه منذ اللحظة
 الأولى ، ونشعر أنك أمام شخصية جارفة ضخمة .
 وكذلك كان المراغى . . .

ومقاييس العظمة ليست في جلال المظهر أو رفاة الملبس ،
 بل هي تبعت من الشخصية القوية . . بمعنوياتها وذهنها
 وشخصيتها . . .

وقديماً كان الأنبياء يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . .
 وكان جمال الدين يهز بريطانيا ، وليس عليه غير

ثوب واحد ، لا يدعه إلا إذا أصبح خلقاً بالياً ..
 ولم يكن السهروردي ، صاحب الحكمة الإشرافية ،
 جميل الثياب ، ولكنه كان آية العبقريّة ..
 وكان غاندي يفعل المعجزات ، وهو عارى البدن ،
 لا تستره إلا خرقه من نسج يده .. وكان المراغى ، حسن
 السمّت ، جميل المظهر ، وكان وسطاً ولم يكن غالياً ..
 ومقياس العظمة فى شخصيته العظيمة لا فى ملابسه
 ومظهره .. ، فى أصغريه ، قلبه ولسانه ، حيويته الدافقة
 وجنانه الثابت وبراعته الفائقة ، وإيمانه بفكرته فحق أن
 يكون المراغى عظيماً ..

* * *

أم أن الصفة التى تضيفها على المراغى هى « الزعامة » ..
 وقد كان المراغى إمام مدرسة ضخمة ، لم يكن أتباعها
 إلا خلاصة المثقفين والشباب ، وهم قلما يتجمعون وراء زعيم .
 كان « المراغى » زعيماً ، على أوفى ما تكون شمائل الزعيم
 والقائد ...

كان يشع روحاً وهاجة حية ، .. مؤتلفة ، وكانت
 شخصية يحفها الوقار والهيبة والجلال ..

.. إذا جلست إليه كشف لك نفسك ، وأطلعك على ما تكنه في أعماقك ، ولم يقتصر إشعاعه على الأفراد .. بل امتد حتى شمل الدنيا التي من حوله .. كنت إذا لقيت ملاًك قوة وحياة .. ، هيئته ، نظراته ، نبرات صوته ، طريقة تعبيره ، إشاراته ، هزه رأسه ، حركة يده . فإذا هو يهزك هزاً عنيفاً .
فإذا انصرفت عنه ظلت كلماته ترن في أذنك ، ويتجاوب في أعماقك ..

كان الرجل عالماً نفسياً بعيد الغور ، يعرف كيف يصل إلى القلوب ويتملك النفوس ، وقد استطاع ذلك في وقت قليل .

وتلك هي صفات الزعامة .

وكان متواضعاً ، هادئ النفس ، حلو الحديث ، رقيق الحاشية . كأنما قد امتص العلم .. امتصاصاً ، وفاضت نفسه به . دقيقاً ، مبسطاً .

لقد جرد نفسه من الحمود ، وحرر طبعه من قيود التقليد ، فسموا وارتفع وحلق ... وأنشأ طيقه جديدة من العلماء .
وتلك هي صفات الزعامة ..

وعرف بقوة العارضة والجرأة في قوله الحق ، لا يخشى

فيها أحداً ، ولا يطلعها إلا في وقتها المعلوم المرسوم . . وقد أوتى إلى ذلك الحكمة واللياقة والمرونة .

وتلك هي صفات الزعامة .

وامتاز بذاكرة قوية (١) يذكر كل ما مر به خمسين سنة لا يخزم منه معنى ، وقد جمع إلى ذكائه الفطري استقلال الفكر وحب الاطلاع ، فما سد أذنيه وعينه عن سماع الحديد ، والنظر فيه ، وهو على اليقين من أن مجد الإسلام لن يكتب له الظهور إن لم يؤيد بالعلم الحديد ، وقد استظهر القرآن ، وتدبره تدبيراً قل أن كان في الفقهاء المتأخرين من داناؤه فيه ، وحفظ وهو في القضاء بضعة دواوين لشعراء معروفين من أهل الجاهلية والإسلام .

وتلك هي صفات الزعامة .

وكان يحلل لك المسألة المعقدة فيحيلها سهلة مبسطة يسيرة ، ويعرض لك الغامضة في بساطة . . تدهش لها . وكان يثق بأنه يستطيع أن يكسب الجميع إلى صفه ، ولم يكن مبغضاً لرأيه ، بل كان يحب حرية الفكر ، وكان صدره يتسع للرأى المخالف ، بالرغم من شدة ثقته برأيه . وكان أبعد الناس عن الحدة أو التعريض .

وكان يحترم خصمه ، ويعمل للوصول إلى صميم نفسه دون أن يجرح كبريائه أو يكشف له ما يشعره بالانتقاص . . .
وتلك هي صفات الزعامة .

وكان أبعد ما يكون عن النفاق والملق . . يحب الجدل ولكن في سر ، طبع على تعشق العمل والإنتاج والبحث . .
فكان يصرف كل وقته في العمل ، لا يكمل ولا يمل .
ولطالما كان يجيئه من يكشفه في جرأة برأيه فكان يواجه ذلك بالصبر والحكمة والابتسام . .

وكان إلى هذا لا يكشف عن إنكار الوسائل في سبيل الوصول إلى الغاية فهو يجرب ويغير ويجدد . . في يقظة وحاسة وحركة . . لا يتوقف . وهو يتحين الفرص ، ويتربص الأوقات المناسبة ، ويدرس الملاحظات ، ويستمع إلى كل الآراء ، ويستفيد من كل شيء .
وهذه هي صفات الزعامة . .

* * *

. . الحق أن المراغي كان بطلا ، وكان عظيما ، وكان زعيما .

* * *

كان في أيام بعده عن الأزهر ، لا يقل تألقاً منه في أيام عمله .

وكان مأمون الغضب إذا حزه أمر .
وكان في أشد حالات سروره ، كثير الصمت ، هادئ
السمت .

وكان النصر لا يزدهيه ، والهزيمة لا ترده عن ثقته بنفسه
وفكرته . .

وكان المنصب في نظره تكليفاً لا تشرiffاً ، لا يريده
إلا تواضعاً ورقة حاشية ، وهو عنده وسيلة للخدمة لا سبيل
للاستعلاء .

وكان عظيماً يشخصه لا بمنصبه .
إذا تكلم قلت أفصح الناس ، وإذا حدث قلت أعلم
الناس .

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .
هضم الفقه والعلم ، وحوله في كيانه إلى خلاصة عجيبة ،
وأضاف ما في بطون الكتب إلى تجارب الحياة فكون منهما
مزيجاً عجيباً .

كان يؤمن بأن الدين لا ينفصل عن الدنيا .

* * *

وقد استطاع الرجل بقوة أعصابه ، وحيويته النفسية
الدافقة ، أن يعيش في حماية من مغريات عصره ، التي

تستغل لتثييط همه كل مجاهد أو زعيم ، وأفلت من غوائل
 المرأة والمال والجاه .. التي سلطها الاستعمار على المجاهدين !
 وأغاثه على ذلك صوفيته الصادقة ، وزهد الطبعي ،
 عاش حياة عريضة ، كذلك التي طلبها ابن سينا . محققاً
 لميادين الشهرة وأسباب الترف ، وحصن نفسه بالخوف
 من الله . . .

وكان لا يحول التخصومات الفكرية إلى خصومات
 شخصية .

وكانت طبيعته السخية النافذة ، أداة طبيعة من أدوات
 النصر التي مكنته من أن يتجح في تحقيق ما عجز عنه
 ما عجز عنه غيره .

لقد عجز بعض من سبقه من المصلحين عن ضبط
 أعصابهم عن مواجهة الأحداث ، حتى وصلوا إلى مرتبة
 الحرج ، وقصروا عن تكوين رأى عام متصف ، أما المراغي فقد
 استطاع أن يتجح فيما أخفق فيه هؤلاء نتيجة لقوة شخصيته .

أما مفتاح شخصية المراغي فهي « الاعتزاز بالكرامة »
 إن حياته كلها صورة لهذه العزة الصادقة التي تضع
 النفس عنده فوق كل شيء . . .

وانتظمت حياته أحداث ، كان فيها جميعها ، ذلك
للرجل الذى يحرص على كرامته ويراهها كرامة الدين والإسلام .
ولا يفرط فيها .

حاول السكرتير القضائى لحكومة السودان ، تغيير لائحة المحاكم
الشرعية فرفض المراهى قاضى القضاة ، وأصر على رأيه . .
ولم يجد السكرتير بداً من أن ينزل عن رأيه إزاء إصرار المراهى .
وعندما مر الملك جورج الخامس بالسودان أعلن أن
العلماء والعظماء سيستقبلونه وقوفاً حول الباخرة على أن لا يصعد
إلا الحاكم العام . .

فرفض المراهى أن يشترك فى حفل الاستقبال إلا إذا
كان من حقه أن يصعد الباخرة فى عرض البحر كالحاكم
العام سواء بسواء .

. . وقد اضطر القائمون على تنظيم الاستقبال خرق قواعد
الدبلوماسية أمام إصرار المراهى ، فلما صعد إلى الباخرة
سلم على الملك قائماً منتصباً فلما سئل لم ينحن للملك قال :
ليس فى ديننا سجود لغير الله .

وعندما أعلنت الحركة الوطنية ، لم يلبث أن اشترك فيها ،
دون أن يبالي بشيء .

وعندما طلب سلاطين باشا تعيينه قاضياً للقضاة رفض

أن يكون ذلك بأمر إنجليزى وأصر على أن يصدر أمر تعيينه بتوقيع خديوى مصر .

وعندما وقفت الحكومة إزاء مذكرته فى إصلاح الأزهر ، موقفاً غير إيجابى ، رفض أن يظل فى منصبه .

أما موقفه فى قصة الأثر الكبير فهى مثل رائع للاعتزاز بالكرامة والإيمان بالحق . . . وهى وحدها تكفى للتدليل على شخصية الرجل العنيد فى الحق ، كان الإثر يقدر بملايين الجنيهات ، وقد أبدى متانة فى إحقاق الحق . . . ولما لم يجد أصحابها وسيلة إلى قلب الرجل العادل ، يمكنهم من تحقيق رغباتهم الجشعة . . . حاولوا إقصاءه عن نظر القضية . . . فقد قوه وهو فى طريقه إلى محكمة القاهرة بماء الفضة فى عنقه كما النحو . الذى صورناه من قبل .

كان الإمام المراغى مثلاً من أئمة الاعتزاز بالكرامة وقوة الخلق والعارضة .

وكان يمزج بين السجائيا وبين السماحة والتبسط واللباقة ويجمع بينهما ، كل منهما له موضعه وله مقامه . . .

وبهذا الخلق العظيم وبهذه السمائل الفر استطاع المراغى أن يكون المراغى المجدد المصلح الذى حقق للأزهر والإسلام آمالاً كباراً . . . ووصل إلى ما لم يصل إليه محمد عبده وجمال الدين .

الكاتب البليغ

لقد وجدت مجال القول ذاسعة فإن وجدت لساناً قاثلاً فقل
 إذا كان الإمام المراغى هو الخطيب البارع الحجة الحسن
 الأداء فهو الكاتب المشرق الديباجة النقى المعنى والمبنى ...
 حقاً ، فالإمام المراغى إلى جميع شئائله ، هو الكاتب البليغ
 صاحب الأسلوب الهادئ العميق .. السهل الممتع ، الذى
 تحسن معه صفاء النفس ، وجلال الفكرة ، وتوقد الذهن ،
 وبعد النظر ، ولباقة العرض ، وسلامة السياق ، وجميل العبارة ،
 وفيض التذكرة ، وقوة العارضة ، وصدق الحجة ، وبراعة
 المثال

فإذا بك تمنضى معه مسوقاً ، تحسن كأنه يأخذ روحك ،
 ويمتلك عليك نفسك ، ولكنك تراك واثقاً ، من أن الكاتب
 لا يخذلك ، ولا يضللك ، وإنما يقدم لك أصدق القول ...
 وأصححه وأسلمه

وعلى هذا كله فإن الرجل لم يكن التأليف ديدنه ،
 أو غايته .. فهو ككل عظماء المصلحين لم يدع لنا مؤلفات

كثيرة . . وهو في هذا يطابق قولاً حياً إلى النفس . إنه
يؤلف الرجال ولا يؤلف الكتب .

ولكنه على ذلك ، ما كان يكتب شيئاً ، حتى « تأشيراته »
المصاحبة العامة ، إلا على تلك الصورة البليغة القوية التركيب ،
النافعة الأثر . . .

.. وإذا ذهبنا نحصى مؤلفاته وجدناها قليلة ، ولكنها
على هذه القلة في الكم ، شاححة ضخمة في الكيف .
ونستطيع أن نقرأ رسالته عن « الإمامة العالمية » أو رسالته في
« جواز ترجمة القرآن » فنجده أمام آفاق غاية في السعة ،
بعيدة في الأثر . . .

.. ولالإمام الكبير بحوث فقهية في قانون الزواج والطلاق .
ما تزال مخطوطة لم تطبع بعد ، وهي موجودة في مكتبة الإمام
وله « رسالة الأولياء المحجورين » التي حصل بها على
عضوية جماعة كبار العلماء وهي مخطوطة أيضاً .

وكان الإمام محمد عبده قد فسر جزء عم ، فبدأ الإمام
المراعي فسار في هذا المضمار ففسر جزء ثاركة . . . بالإضافة
إلى السروسين الدبشية التي ألقاها بين يدي جلالة الملك فاروق
ثمان سنوات ، وكان أول من ابتدع هذه البدعة الحسنة
ونحن هنا لا نحب الإطالة في الحديث عن بلاغة الإمام

المراغى ، ونخلى بين القارى وبين هذه النماذج التى اخترناها . .

* * *

انعقد فى لندن فى ٣ يولييه ١٩٣٦ مؤتمر عالمى لإيجاد زمالة عالمية بين الأمم كافة وقد دعى الإمام المراغى لإلقاء خطبة فى هذا المؤتمر فأرسل كلمة ضافية ألقاها الأستاذ عبد العزيز المراغى وكان عضو البعثة الأزهرية هناك ومما جاء فى هذه الكلمة قول الإمام :

« لا أعتقد أن التقدم العلمى والفلسفى بقادر على التغلب على العوامل وإزالة أسبابها ، فقد شاهدنا أن الحروب تزيد هولاً ووحشية كلما تقدم العلم . . . » إن الأديان كلها قد اعتمد فى الإنسانية على أصل راسخ من غريزة التدين ، ودفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة عادلة ، ترقب النيات ، وتحكم الضمائر ، وأن هذه الحياة صائرة إلى غاية من المسئولية والمجازاة ، ففى التدين هذا التأليه والخضوع ومراقبة الإله . . . ، وتوقع محاكمته ، عوامل ليست أقل خطراً ولا أضعف أثراً فى دفع الإنسان إلى الخير والبر .

ويرى الإمام أن الزمالة بين رجال الدين يجب أن تسبق الزمالة العالمية وفى هذا القول فى صلب الرسالة « من الواجب أن يتعاون أهل الأديان على تقوية الشعور الدينى وإعادةته

يغمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله ، ورحمة ورفقاً
 بعباد الله ، وعلى إعزاز مركز الأديان أمام العلم وأمام الفلسفة
 « ولا شك في أن تقوية هذا الشعور وإعزاز مركز الأديان
 في الحياة الإنسانية من خطر هؤلاء المستنيرين وقدرتهم حين
 تتحكم العادة وتقوى الرغبات غير الشريفة
 ثم يقول على كسب المستنيرين ، فيقول « ثم إذا استطاع
 أهل الأديان كسب هؤلاء ، وإيجاد الشعور الديني في قلوبهم ،
 فإنهم يكونون قوة فعالة في تنمية وسائل الإخاء البشري
 « إن إيجاد هيئة تقوم بتقوية الشعور الديني ونجاحه في
 الطبقات المستنيرة يفضي بتأييد مركز التدين أمام البحث العلمي
 والتفكير الحر تأييداً يقوم على احترام العقل وإعطائه حقه
 الكامل في البحث التزيه التماساً للمعرفة ، يعتمد هذا الدليل
 على مقابلة الدليل بالدليل ، وعلى الارتفاع بطرق الإقناع
 الصحيحة مع البعد عن الوسائل الإرهائية والتضليل ، وعن
 الارتكان على السلطة الروحية المستبدة ، وبالجملة يتعد عن
 الأخطاء الماضية التي دفعت الإنسانية ثمنها باهظاً مرهقاً »
 وهكذا رسم الإمام المراغي لمؤتمر الأديان العلمي واجبه
 وأهدافه في صراحة وفي قوة .

ويتجلى لك الإمام المراعى فى صورة العالم الذى جمع
بين الدين والدنيا فى هذه القطوف :

«أيها المسلمون : لقد تحققت فيكم نبوءة خاتم الرسل
صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : «توشك الأمم أن تتداعى
عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»

«تحققت هذه النبوءة ، وتداعت عليكم الأمم ، بل تداعت
عليكم الثعالب تريد السيطرة على ما بقى من تراثكم ، وتريد
الاستعلاء عليكم ، ويحوم ما بقى من آثار العزة الإسلامية وشعائر
الإسلام . . . وركنتم إلى مودتهم مخالفين كتاب الله وضربوا
ببعضكم رقاب بعض ، وأذلوا بعضكم ببعض ، وأنتم لاهون
عن الخديعة والمكر ، ساهون عن روغان أولئك الثعالب وهم
فرحون ضاحكون « لا تثقوا بعد أن جربتم ، ولا تأمنوا بعد
أن بلوتم ، فهبوا من نومكم . ، واعملوا والله معكم ، ولن يتركم
أعمالكم . . . »

ثم يصل الرجل المصلح من تصوير هذه المتاعب إلى
العلاج الحاسم وهو دائماً يراه فى تحطيم الفوارق المذهبية
«أيها المسلمون . غصو الطرف عن الفروق الطائفية والمذهبية
ولا تجعلوا تلك الفروق سبباً فى الفرقة ، وسلاحاً بيد عدوكم ،
يخرب به بيوتكم ، ولا تعشوا أحداً فى إظهار شعائر الإسلام ،

والانتصار له ،

وهو في مهجة رجل الدين يقول :

« على جملة الأديان أن يسعوا إلى رد الظلمات إلى النور ،

وإلى إيجاد السعادة النفسية عند الجماهير بردهم إلى الله وتوحيده

قلوبهم إليه ،

ويتحدث عن التقليد الأعمى فيقول :

« قتت بعض شعوب الشرق بمظاهر الغرب ونظمه ،

وأُسرفت في اتباع كثير من أساليب الحياة فيه ، واستطارت

الرث الخلق من ثيابه مع قليل من حديثه ، ولقيت من زينة

الأول ومن هذه الرقاع المستعارة لباساً مشوهاً ، لا هو شرقي

ولا هو غربي ، وأصبحت حياتها الاجتماعية ملققة ، لا هي

دينية ولا أمي غير دينية ،

ثم لا يلبث أن يصف العلاج الحاسم :

« لا يصلح أمر هذه الأمة في آخرها إلا بما صلح به

أولها : رجوع إلى الله وهدى وتحكيم كتابه عند الاختلاف ،

وهذه قطعة من قلمه البليغ يتجلى فيها النقاء والصفاء

والخلق من تأثير على نشر العلم وعلى إحياء الأخلاق

الفاضلة والشم العالية وإغااث الملهوفين ، وفرج عن المكروبين ،
وأعن الضعفاء ورفع عن البؤساء . . . ووحّد الجهود ، ووثق
الإخاء ، وأزال الشحناء ، والبغضاء ، من نفوس العباد . . .
وعمل على وقاية المجتمع مما يهدده من الأخطار في دينه وعرضه »

* * *

فإذا تحدثت عن حرية الفكر ، وهي دعوى . كثيراً
ما تثار لغرض رأيت الحصافة واللباقة تتجلى في العبارات
الدقيقة

« لحرية الفكر والرأى مناطق لا يجوز أن يتعداها محافظ
على كيان الأمة وعلى أخلاقها ، فإن الجمهور الجاهل والنشء
المتعلم ، يجب يحاط أن بسياج الدين وتقديسه ، وإلا تفلت من
كل فضيلة ، وذهب وراء الشهوات ، وارتكب أنواع الجرائم
والموبقات »

* * *

وهو يؤمن بالوحدة الإسلامية صادقاً حيث يقول :
« أرى واجباً على تنبيه المسلمين إلى وجوب السعى إلى
الوحدة الإسلامية ، ليم بينها التعاون والتناصر ، ولتكون أمة
محترمة عزيزة الجانب صلبة القناة . . . وينبغي أن تكون
الوحدة شاملة للثقافة والمذاهب والآراء لتزول تلك الفوارق ،

التي قطعت أواصر النسب وحبال المودة الإسلامية ، وكانت سبباً
للضعف الذي استغل واتخذ أداة للتفريق والهدم .

* * *

وهو يضع يده على الدواء في عبارته :
« لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بالعقل والمعرفة واليقين ،
فلم يذهب مجدها وعلمها وفقهها ، إلا بإهتدال هذه الأسس
وبعدها عن فهم الكتاب وتعاليمه الرشيدة ، وعن هدى صاحب
الرسالة صلوات الله عليه .

* * *

ويعصور أمجاد الأمة الإسلامية ، ويقهر المحاولات المضللة
لنسيان هذه الأمجاد في عبارة قوية :
« لدى الأمم الإسلامية ماض يحرق أثواب الفخر والشرف
في كل ميادين الحياة ، في ميدان العلم وفي ميدان الفنون ،
وفي ميدان السلطان والعز ، وفي ميدان التشريع والقانون ،
لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضي والتخلص
منه والزراية عليه ، والخط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد
جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الماضي والحاضر
صلة .

وليس أدعى إلى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه

المحاولات التي فيها عقوب الأبناء للأبناء ، ونكران الحميل ،
وإنكار التاريخ ومنها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور .

* * *

فإذا جاء موعد الهجرة وجه النصيح . . وهدى
« من الحق أن يحتفل بالهجرة ، ولكن من الحق علينا
أن نعتبر بها ونتعظ ، وأن نقتدى بسيرة صاحبها ونستلهم
منها سر العظمة ، فهي تهدينا إلى تقدير الخلق وإلى
ما فيه من جمال وسمو روحى ، تفوق لذاته كل مادية فى
الدنيا ، وإلى أن الله سبحانه يمكن لمن آمن به وعمل صالحاً فى
الأرض ويبدله من بعد خوفه آمناً ، مصداقاً لقوله « وعد الله
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما
استخلف الذين من قبلهم ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى
لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم آمناً »

* * *

ثم يصل فى عبارات بليغة ، سمحة ، صافية ، إلى مقطع
القول فى إصلاح دنيا الناس للناس :

« هذا العالم المملوء بالشرور والآثام والاعتداء والإجرام ،
والذى تن فيه الإنسانية من العلم والمدنية والذى نخلت أفئدة
أهله من الروح الإلهى ، ومن تعاليم الأديان ، ونظم المسيحية

والإسلام ، لا ينجيه إلا الرجوع إلى الله واحتشاق الطاعة
 البعيدة عن النظم الإلهية والخلاص من الشهوات الجاهلة ،
 والمطامع الفاسدة ، وتذكر الدار الآخرة ، والاعتقاد بالجزم ،
 وبالحنث تجري من تحتها الأنهار للأتقياء البررة .

فليس لهذه الحالة علاج إلا التدين ، وفي تعاليم القرآن
 شفاء للناس ، وفي نظمها من المرونة واليسر ما يستطيع أن
 يحل مشاكل العالم ويزيل مساويه .

وبعد فهذه قطوف ، لم نتخيرها ، وإنما نقلناها كما
 صادفنا في أماكن متفرقة من كتابات الإمام الخليل
 وهي تعطى القارئ صورة واضحة لقلبه البليغ ، ونفسه
 النقية الصافية ، ومدى إيمانه بالإصلاح والتوجيه في سبيل
 عالم أفضل .

وصدق كرد علي حيث يقول عن الإمام أنه « كان يكتب
 بدون تكلف بألفاظ عذبة رفيعة لا سمج فيها ولا ازدواج ،
 وعباراته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين في القرن الرابع
 والخامس وتغلب عليه ألفاظ القرآن ونهض أن كتابها مشيح
 إلى الغاية بألفاظه ومعانيه » .

نرى أن نذكر فيما يتصل بهذا أن الإمام الميرزا محمد
 باقر فصل فيها الوقائع والأحداث التي صادفها في محضر

وما يتصل فيها من زعماء وأشخاص .

ويبدو أن هذه اليوميات لن ترى النور في وقت قريب ، لأن ظروفنا معينة تحول دون نشرها . . ونحن نرجو أن تزول هذه الأسباب فتتحقق إذاعتها لينتفع بها الناس .

ولا شك أن لهذه اليوميات قيمة تاريخية كبرى بعيدة الأثر في توجيه التاريخ المعاصر والحكم على شخصياته وزعمائه .

مكان المراغى

من الجماعة المجددة

ويتصل بهذا موقف المراغى من الجماعة المجددة وليس من شك أن « الإمام » المراغى ، كان « راعياً » و « موجهاً » للنهضة الفكرية الحديثة ، وكان بعيد الأثر في الاتجاه الإسلامى الذى ذهب إليه الكتاب إذ ذاك ، ومضوا فيه .

كان المراغى سفير الأزهر الأول عند الطبقات المتقدمة التى اتصلت بالبيئة الأدبية ، وأعلنت نغمها على الفكر العربى ، وسخرتها من التراث الإسلامى حتى أعاد المراغى بجهوده الثقة بالإسلام والأزهر والتراث العربى جميعاً .

وهو الذى أخرج علماء الأزهر بعد طول اعتكاف إلى دنيا الناس ، وأتاح للعلماء والمفكرين أن يتصلوا بالأزهر ويقولوا عليه .

وكان رضى الله عنه وثيق للصلة بصفوة رجال مصر وفى مقدمتهم أحمد لطفى السيد باشا ومحمد محمود باشا وجعفر والى باشا .

وقد جمع بين الفقه والعلم والاجتهاد من ناحية ، وبين الروح العصرية التي تقبل خير ما في المدنية الحديثة من ناحية أخرى

وقد اتصل بالجماعة المجددة ، اتصالاً وثيقاً ، فكان هوناً لميكل باشا على تأريخ السيرة ، وهو الذي شجعه على إخراج كتابه على الأسلوب الحديث الذي انتهجه ، في الوقت الذي كان علماء الأزهر يقفون من الكتابة العصرية عن الإسلام موقفاً معارضاً .

ومضى الإمام المراغى يشجع كتابه العصريين عن الإسلام ، فقدم لكثير منهم مؤلفاتهم ، قدم للدكتور عبد العزيز إسماعيل ، كتابه عن علاقة الإسلام بالطب الحديث وقدم للدكتور فريد رفاعي كتابه عن الغزالي . . . وقدم لغيرهم كثيرين . . .

وإذا كان الإمام المراغى ، هو أحد تلاميذ الإمام محمد عبده أو على حد قول شارلس آدمس مؤلف الإسلام والتجديد « أكبر تلاميذ الإمام » فهو في الحق أقرب تلاميذ الأستاذ محمد عبده إليه .

وإذا ذهبت تقارنه برشيد رضا ومصطفى عبد الرازق ،

وضح لك هذا المعنى على أوسع نطاق . . .
 أما الشيخ رشيد فقد هلك إلى الصحافة والتوجه الكائن
 ولم يكن خطيباً وكانت آراؤه في نطق متحفظ . أقل جرأة
 من محمد عبده وأقرب إلى الحمود . . .
 أما الشيخ عبد الرازق ، فقد كان أقرب إلى الفلاسفة
 والأدباء والعلمين منه إلى المصلحين . وقد سافر إلى أوروبا
 ودرس علومها ، واتصل بالسياسة على وجه حزبي ، وخصي
 فيها طويلاً . . . وكان منزعه إلى الأدب أقرب .
 أما المراغي فقد كان سورياً على الصراط ، مصلحاً
 أزهرياً بالقطرة ، لم تأخذه الصحافة ، ولم يمل به السياسة ،
 ولم يلبس مذاهب الأدباء أو الفلاسفة ، وأما أمين باشا فشرع
 الإسلامى ، ورسالة الأزهر ، وفتح باباً للاجتهاد ، غاية الإيمان
 وعمل غامضاً .

...

بنى الحديث عما كان بينه وبين الشيخ الطواهرى
 فقد ولد الطواهرى مشيخة الأزهر في الفترة بين القرنين
 اللتين عمل فيها المراغى . . . - أى من ١٩٣٠ حتى سنة
 ١٩٣٥ - ثم أعيد المراغى ، على أثر الضجة التي قام بها
 طلبة الأزهر غير مدفوعين ، إلا بإيعازهم بالرجل الأسطى

في هذا الظرف . ، هذه الضجة هي وحدها مقطع القول الحق
في أمرهما معاً . . .

* * *

وقد كان المراغى هو الرجل المنشود ، الذي أزال الأشواك
وحطم الصخور والحنادل ، وفتح الباب للعمل الواسع البعيد
المدى في إصلاح الأزهر وفي تحرير العقيدة .

ولن يستطيع عامل في هذا الميدان ، ولو جاء بعد مائة
عام أن ينسى فضله وأثره .

عاش رضى الله عنه « خمسة وستين عاماً » كانت من
من أحفل أعوام « حياة » رجل مجاهد ، مؤمن . .

قضى في دراسته في الأزهر أقصر أمد ، يمكن أن يحصل
فيه طالب درجة عالم . .

وقضى في السودان عشر سنوات ، كانت من أحفل
السنوات بالجهاد والعمل والإنشاء . .

وقضى في القضاء عشر سنوات أخرى كانت حافلة
بالإصلاح والتجديد . . ثم وصل إلى أعظم منصب ديني

في الشرق ، فقضى فيه على فترتين أكثر من عشرة أعوام ،
تحقق فيها الكثير من آمال الأزهر والإسلام قاد الثورة في

السودان ، على أثر الثورة المصرية . .

وأصلح الأسرة وأعاد إليها كيانها . .
 وجدد الأزهر ، وفتح باب الاجتهاد ، وأعاد الثقة
 بالإسلام .

ودعا إلى ترجمة القرآن ونشره في الخافقين . .
 وعمل على وحدة المسلمين وإزالة أسباب الخلاف المذهبي

بينهم

وعمل في محيط السياسة العليا النقية ، فوجه وأرشد . . . وسدد
 واحتمل في سبيل رأيه ، وكرامته ، وكرامة منصبه ، كل
 شيء . .

وكان إلى ذلك كاتباً بليغاً ، وخطيباً قوياً ومحدثاً لبقاً .
 ومع هذا الجهاد الطويل كان رضى الله عنه يرى أنه
 لم يحقق بعض ما كان يريد بل ويتم نفسه بأنه لم يعمل شيئاً
 ويقول « إننى أضعت عمري عبثاً في الاشتغال بالقشور . . »
 وكان يسمي أن محور الفقه الإسلامى وبنقيه مما علق به . .
 ويقول « إن ذلك كان أنفع عند الله وأجدى »

* * *

وبعد فالإمام المراغى رضى الله عنه ، صورة مجددة من
 صفوة أقطاب الفكرة الإسلامية الذين أرسلهم الله لتجدد

رسالته ونشر دينه .

وقد قام بواجبه ، على وجه ، هو غاية في القوة والمظمة
والجلال ، وسجل له التاريخ تلك الآثار العديدة ، البعيدة
المدى ، في تاريخ الأزهر والإسلام والشرق . .

ونحن إذ نقدم هذه الرسالة الصغيرة ، إنما نستشعر
صادقين ، عظمة الرجل الجديرة بأن تكتب عنها الأسفار
والمجلدات ، ونرجو أن نوفق إلى القيام بمثل هذا العمل بالاشتراك
مع صفوة من أصدقاء الإمام وحوارييه . . .

رضى الله عنه ، ورحمة رحمة واسعة ، وأسكنه مقام
الصديقين والأبرار والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

إلى عالم الخلود

ثم غرب النجم . . . بعد أن سطع في تاريخ الشرق
والإسلام والغروب والأزهر زمناً . . . اختطفه الموت . . . في الوقت
الذي كانت الدنيا تنتظر على يديه الكثير . . . والموت . . . كما
يقول المازني - حتى . . . ولكن وقعه يختلف . . . فإن الخلود غير
القادة . . . والنجاة من الناس غير ذوي الوزن والرحمة . . .
واللواء المرفوع . . . إذا خر صاحبه لم يحسن حمله بعده
إلا صوته أو قريحه ولم يقو على إقامة مرفوعاً خفاقاً . . . إلا
اللد والقرين . . . والزمن بهؤلاء المتنازين ضنين . . . فكأنما الواحد
منهم . . . يحصل ما في ثروة جيله . . . من عناصر القوة والصالح . . .
فيحتاج الأمر إلى زمن كاف لسد النقص وتكوين هذه
العناصر من جديد . . . بالمفاهيم الكافية لإخراج فرد آخر مثله . . .

كان المرض يعاود الأستاذ في السنوات الأخيرة . . .
حين وعين . . . وكان القيد قد ألقي الحديث الذي الأول
من أحاديث شهر رمضان كعادته كل سنة . . .

حضرة صاحب الجلالة الملك ..

.. وأحسن بالحاجة إلى الاستجمام والاستشفاء ، فقصده مستشفى نفّاد الأول للمؤاساة ، ... وظل في حجرته بالمستشفى يقرأ ويسجل ملاحظاته .. كان يعد حديثاً في تفسير «آية القدر» .

كان يريد أن يقول شيئاً جديداً ، في هذه الآية ، يهز به الدنيا .

لطالما حدث العلماء الذين زاروه واتصلوا به ، بأنه سيحدث بتفسير هذه الآية انقلاباً ... فكريباً وعلمياً .

وقال بعض من استمعوا إليه ، إنه رأى أن ليلة القدر هي أول ليلة بدأت فيها الإمبراطورية الإسلامية ، فهي المهرجان الأول لها ...

* * *

وكأنما كان يحسن الشيخ بوقع الموت ودينيه ..

فقد كان في هذه الفترة الأخيرة من حياته ، يستشعر شيئاً جديداً كان قد ضاق بالدنيا ، وقد أسر بعض هذا المعنى إلى ابنه « المرتضى » ..

وهمس بمثل هذا القول إلى ابنه « رشاد »

.. إنه كان يرى أن أحداً لا يفهمه ، وأنه يحب أن

يلقى الله ، وكان يؤمن بأنه أهل لهذا اللقاء . . .
 وكان على ثقة - يرددها دائماً - إن الله جل جلاله يعلم
 منه إخلاصه وصدقه .

وكان يفهم من هذه العبارات التي أسرها إلى بعض المقرئين
 إليه . . . أن أملاً كان يراود نفس الإمام . . . وأن الظروف لم
 تنح له لتحقيقه ، على الرغم مما قصد إلى ذلك ، فتمنى لقاء ربه .
 وتركته « ممرضته » وبين يديه كتب تفسير القرآن يراجعها .
 ثم عادت فوجدته مسجى بين سطور من الذكر الحكيم ،
 وقصاصات من التفسير هي آخر ما كتب الفقيه . . .
 وكان ذلك في ساعة متأخرة من مساء الأربعاء ١٣ رمضان
 ١٣٦٤ - ٢١ أغسطس ١٩٤٥ .

حدثني الأستاذ رشاد المراعى قال : لقد دخل عليه
 طبيبه قبلها بيومين فبادره الشيخ في حزم : رضيت أو لم ترض . .
 سأكون في القاهرة يوم الخميس . .
 وصدق . . فقد قصد إلى القاهرة يوم الخميس محمولا على
 الأعواد ، حيث شفع إلى مقره الأخير .

وكان آخر حديث ديني ألقاه ، بين يدي جلالة الملك

يوم الجمعة ٨ رمضان ١٣٦٤ في مسجد (على ممرار) كما
هي عادته كل عام . . .

وكان صوته متهدجاً . . . في هذه المرة ، وكانت أنقاصه
متلاحقة . . . ، وأحس الذين سمعوه أن الإمام المراغي كان
يودع الدنيا ، ويحس دبيب الموت .

وكان حديثه الذي نشره في الأهرام في الأسبوع الأخير هو
وصيته الأخيرة للمسلمين : « وأسروا قولكم أو اجهروا به . . . إنه

علم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .
» قاله يعلم المصلح من المفسد ويعلم الصائم من المفطر . . .

ويعلم المخلص في صومه ، والمرائي . . . ويعلم من أدى حق
الصيام ، ومن أجل بحقه ، لأنه خلق عباده وعلم ما في

ضمايرهم وسرائرهم

« وللصوم حقوق يجب أن تؤدي حتى يقبله الله فما هو

جوع ولا عطش وامتناع عن الشهوات فحسب . . . وإنما هو
رياضة نفسية يترك فيها الأكل والشرب واللذات الأخرى

عن طيب نفس ، ورضاً وسروراً وبهجة ، لأن الله أمر ،
ولأن الله طلب ، ويقصد المراتة على ترك ما تحبه النفس ،

إذا كان في تركه رضا الله

والفقراء فيه حقوق على الأغنياء ، ليست حقوق الزكاة

المفروضة فحسب ، بل ما يمنح الفقير رضا من جاره القنى ،
ليزيل من قلبه الغل والحقد والحسد وتمنى زوال النعمة .
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أسخى الناس نفساً
وكان في رمضان كالرييح المرسلة رحماً أن يتقبل المسلمون
تهنئته بشهر الصوم المبارك ، وأرجو أن يكون منهم فيه
التذكير في حاضرهم ومستقبلهم والتذكير في تحطيم الأغلل
التي أرفقتهم وبحج المذاهب والشيخ التي فرقهم وصيرتهم أمماً
بعد أن كانوا أمة واحدة وصيرتهم أعداء بعد أن كانوا إخواناً
وصيرتهم أشداء بعضهم على بعض بعد أن كانوا رحماً وصيرتهم
مستضعفين عند غيرهم بعد أن كانوا أقوياء . . . والذين رابطوا
إخلاص الله وحسن معاملته مع الخلق ، ولا يضربوا مع العزة
الإسلامية أن يحل الله العصاة في النار أو يطلقهم ولا أن
تكون صفات الله من ذاته أو غير ذاته ، ولا أن يكون الماء
الذى لا ينجس عسراً في عشر أو قلتين ، ولا أن يكون
أبو بكر في البر وتكون سابقاً على علي أو يحيى على قتيبة . . .
أيها المسلمون تبهوا فالزموا جاد وأتم تهذيباً ، انصروا
على هذه المذاهب جميعها وخذوا مذهباً واحداً عن الله سبحانه
وتعالى ، هو المذهب المنصوص عنه في القرآن فإن فعلتم ذلك عزتم
والا بقيتم في الهوان . وحذاب الآخرة أكبر من أن تكونوا يائسين .

وما سرى النبأ في الشرق ، حتى هز الدنيا . . وأفرغ
من كانوا يعقدون الأمل على الإمام الكبير .
وتأثرت بيروت ودمشق وبغداد والقدس ، وأقيمت صلاة
الغائب عليه في جميع مساجدها الكبرى .
وعمرت أنهار صحفها الكبرى بأبناء الإمام والحديث عن
شماله وتاريخه وصفحات جهاده وأمجاده . .
وفي مصر تأجلت حفلات وفاء النيل
وصلى جلالة الملك فاروق الجمعة في مسجد سيدى بشر . .
وبعد أن تمت الصلاة تفضل فقال للجماهير المصلين :
« أطلب منكم أن تقرأوا الفاتحة على روح صديق
الشيخ المراغى »
أما السودان فقد تأثر بالحادث ، على صورة مروعة . . ،
فقد شمل الحزن جميع المناطق التي عرفت الرجل ، والتي
لمس أهلها خلقه النبيل وشخصيته الكبيرة وأقيمت صلاة
الغائب في مساجد السودان .
وأرسلت التعازي ، من حلب ، وأوقف اتحاد العلماء
هناك جلساته . . وأرسلت إيران والحجاز واليمن وسوريا ولبنان
تعازيها ووفودها . . .
وأحسن الجميع بأن الرجل العظيم قد مضى . .
رحمه الله رحمة واسعة . . .

فهرس

صفحة	تصدير
٥	النويع الباكر
١٠	قاضى القضاة
١٥	إصلاح الأسرة
٢٨	قضية النار
٣٣	بين محمد عبده والمراعى
٣٨	شيخ الأزهر
٤٨	(١) أربعة عشر شهراً
٤٨	(٢) منهاج
٥٤	(٣) أعظم وثيقة فى تاريخ الأزهر
٦٤	(٤) السنوات التسع فى عمر الأزهر
٦٩	الأزهر الجديد
٧٩	الإمام المجهد
٩١	علمية القرآن
٩٩	المراعى السيامى
١٠٧	

صفحة

١١٨

الاعتزاز بالكرامة مفتاح شخصية المراغي

١٣٢

الكاتب البليغ

١٤٣

مكان المراغي من الجماعة المجددة

١٤٩

إلى عالم الخلود